الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
منشورات الاختلاف

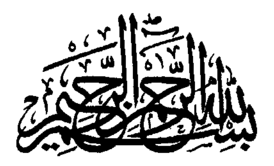
جاك دريدا

أحادية الآخر اللغوية

ترجمة وتقديم:
د. عمر مهيبل

أحادية الآخر اللغوية

أو في الترميم الأصلي



أحادية الآخر اللغوية
أو في الترميم الأصلي

تأليف

جاك دريدا

ترجمة وتقديم

د. عمر مهيبل



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

منشورات الاختلاف

الطبعة الأولى

1429هـ - 2008م

ISBN 9953-87-281-0

منشورات الاختلاف

14 شارع جلول مشدل
الجزائر العاصمة - الجزائر
e-mail: revueikhtilef@hotmail.com



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 ـ 785108 ـ 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574 ـ 13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الالكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إن "النقصان" لا يكمن في الجهل بلغة معيّنة (ولتكن الفرنسية مثلا)
ولكنه على النقيض من ذلك يتمثل في عدم الإلمام بتعبير خاص (سواء
أكان خاصاً بلغة المستعمرات أم بلغة الحاضرة). ذلك أن التدخل
السلطوي والفوقي للغة الفرنسية ما انفك يعمل على تدعيم مسارات
النقصان.
إن المطالبة بهذا التعبير الخاص، تمر إذن، عبر مراجعة نقدية للغة
الفرنسية [...]
هذه المراجعة يمكن أن تتم عبر ما يمكننا تسميته: مراجعة "لا
انسانوية"، بما أن عملية توليف اللغة الفرنسية تتم عبر آلية "انسانوية"

ادوارد غليسون:

مقال الانتيل

Edouard Glisson: Le discours antillais
Editions du Seuil, 1981, P.334.

هنا يكتب للغة ميلاد جديد عبر تشابك الأسماء والهويات المتمفصلة
حول ذاتها المتماهية،
مشكلة حلقة نوستالجية تعني بالواحد الأوحد [...] لذا أعتقد جازما
أن اللغة ذاتها،
في هذه الحكاية، قد تملكتها الغيرة.

عبد الكبير الخطيبي

حب عبر لغتين (مزدوج اللغة)

Abdelkebir Khatibi
amour bilingue, Ed. Fata Morgana,
1983, P.77.

مقدمة

جاك دريدا: من أقاليم اللغة
إلى أقانيم الهويــــة

ها أنذا أعود مرّة أخرى إلى جاك دريدا لأقدم للقارئ العربي الترجمة الأولى لأحد أهم كتبه وهو **أحادية الآخر اللغوية**، كتاب ينتقل فيه دريدا من أقاليم اللغة بحمولاتها الحاضرة ودلالاتها الغائبة إلى البحث في أقانيم الهوية بمسمياتها المتفردة تارة، وألاعيبها المتكثرة تارة أخرى. إن عودتي لدريدا هنا لا تحمل من العودة سوى معنى العودة، فهي ليست عودة تفكيكية، ولا بنيوية، وإنما هي عودة تهدف إلى وضع دريدا على محك "البحث الهرمينوطيقي"، ومحاولة إدخاله مملكة المعنى، المرجع، الدلالة وبالمرة إخراجه من أقنوم اللغة الباحثة عن انسجامها داخل غرائبية لفظية متعبة، مرهقة تكاد أن تجعل من الانسان رمزاً ضمن قائمة مرموزاتها الكثيرة.

لقد ميّزت في إحدى مقالاتي السابقة بين لحظتين أساسيتين تشكلان الهرمية الفكرية لدريدا وهما: اللحظة الفينومينولوجية التي كانت بمثابة المدخل الأولاني لبحث مسألة المعنى والعلامة كما تصورها فيلسوف الفينومينولوجيا الأول أدموند هوسرل، وذلك من خلال كتابيه الهامين: **أصل الهندسة عند هوسرل** (1962)، **والصوت والظاهرة** (1967)، واللحظة الغراماتولوجية التي يقف على قمتها كتاب: **الغراماتولوجيا** (علم الكتابة) (1967)، وكذلك

كتاب **الكتابة والاختلاف** (1967) والتي دعا فيها دريدا إلى تثمين فعل الكتابة بما هو الوسيلة الأنجع لضمان ترسيم الأثر الخاص بكينونة الإنسان الزئبقية، وبما هي مفتاح المعنى ولكنها أيضاً بما هي مفتاح التفكيك، التشتيت، البعثرة والمهمازات التي يحسن تحريك توجهاتها بشكل بارع قصد تحطيم كل ما يحيل إلى الكثرة والمركزة والواحد المتأحد للميتافيزيقا الغربية التي ينعتها بميتافيزيقا الحضور.

في حين أعتقد أن كتاب **أحادية الآخر اللغوية**، بالإضافة إلى كتب أخرى أهمها: **وداعاً لڤيناس** (1997)، **ومذكرات لأجل بول دومان** (1988) تمثل لحظة مميّزة في ميراث دريدا الفلسفي والابداعي بعامة أسميها اللحظة النوستالجية، ذلك ان أحادية الآخر اللغوية متن يتداخل فيه اللغوي بالتاريخي، الفلسفي بالديني، والسياسي بكل ما يحيل إلى البحث والتنقيب في أقانيم الهوية وخطاطاتها المنكسرة كما يحلو لدريدا أن ينعتها بذلك.

والواقع أن كتاب جان غراندان **المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا**(*) الذي كنت قد انشغلت بترجمته سابقاً، كان قد أشار إلى مسألة في غاية الأهمية والحظورة، لم تعط حقها من النقد والتمحيص، وهي موقف دريدا من اللغة بعامة، ومن اللغة الفرنسية بخاصة، وكيف أن هذا الموقف يتضمن مفارقات لا حصر لها.

لذا سأباشر تحليل **أحادية الآخر اللغوية** في مستويين اثنين:

(*) جان غراندان: المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا الدار العربية للعلوم منشورات الاختلاف. Jean Grondin: *Le Tournant Herméneutique de la phénoménologie*, *Editions*, p u f. 2003.

المستوى الأول اسميه البعد النوستالجي في المسألة اللغوية - الهوياتية لدى دريدا، والمستوى الثاني اسميه البعد الهرمينوطيقي في المسألة ذاتها.

1- البعد النوستالجي: كتاب **أحادية الآخر اللغوية** تحفة لغوية وأسلوبية رائعة بإقرار جهابذة اللغة الفرنسية كما هي، في الحقيقة، أغلب مؤلفات دريدا، ورحلة ممتعة لمن يتذوق لعبة، بل ألاعيب اللغة، والتواءاتها، واستثناءاتها الغريبة على الطريقة "الدريدية". لكن هذه التحفة اللغوية تخفى بين جنباتها أفكاراً ومواقف ينتصب فيها تاريخ دريدا الإنسان عارياً بكل آناته الزمانية الانطولوجية: الماضي - الحاضر - المستقبل، ينتصب فيها تاريخه الذي يحيل إلى لا تاريخ، ولغته التي تحيل إلى لا لغة، وأحاسيسه التي تحيل إلى ما لا يستشعر.

والكتاب عبارة عن حوار هو أقرب ما يكون إلى المونولوج بين جاك دريدا الحاضر، وعبد الكبير الخطيبي الحاضر - الغائب لجهة أن دريدا نفسه يتحدث عنه بصيغة الغائب. حيث يستحضر أجواء مشاركتهما في أحد الملتقيات التي انعقدت في أمريكا حول مسألة الآخر - وعليه، أغتنم دريدا هذه الفرصة السانحة ليدشن حواراً مع الخطيبي وتحديداً من خلال كتابه الهام **حب مزدوج اللغة** *Amour bilingue* (1983) الذي يمارس فيه الخطيبي بوحه الدفين الخاص باللغة - لغة يمارسها ويعتقد أنها ليست لغته، ولغة يحبها ولا يستطيع أن يمارسها - ومن ثمة الاستشكالات القائمة في أفقها على جميع المستويات. إذن انطلاقاً من هذه الفرصة أيضاً يقوم دريدا بممارسة بوح من نوع خاص حاول أن يفتح خلاله صندوق العجب

الذي يضم تاريخه، ما خفي منه وما ظهر، صندوق تشكل مسائل اللغة، الهوية. الانتماء، الوطن، المواطنة، الفرنسية، الجزائرية، العرب، البربر (الأمازيغ)، اليهود، اليهودية، نقاط ارتكاز أولانية لبحث قضية يعتقد دريدا أنه حان الوقت لبحثها وهي: من هو المفكر الحقيقي؟ من هو المفكر الفرانكو - مغاربي الأصيل؟ فهما وإن تفرقا من حيث المولد، فدريدا جزائري المولد، وعبد الكبير الخطيبي مغربي المولد، فإن ما يجمعهما هو أوثق بكثير من رائحة الدم والأرض، إنها اللغة، اللغة الفرنسية. من هنا كان سؤال دريدا المحوري، والذي يمكن أن نسميه بأنه الفكرة المحورية للكتاب: هل يمكن للغة أن تكون أساساً للهوية، ومن ثمة أساساً للمواطنة؟ وهل في مقدور اللغة لحالها أن تشكل ماهية الهوية والمواطنة على حد سواء؟ هذا الاستشكال النظري يفضي بنا إلى سؤال أكثر ملموسية وهو: هل يمكن أن نعد اللغة الفرنسية أساساً لما يمكن أن نطلق عليه هوية مغاربية موحدة يكون عنوانها الأوحد: الفرانكو - مغاربية؟ وبالمحصلة نعود إلى سؤالنا الرئيس الأول وهو: من هو الفرانكو - مغاربي الحقيقي والأصيل إذن؟

لا شك أن دريدا، وعبر تدويرات لغوية معقدة، وأساليب تعود بنا إلى تقنيات التفكيك الكتابية التي مارسها في طقوسها القصوى في كتاباته الأولى، استطاع أن يتخلص من مجمل الأسئلة المقلقة التي فتح صندوقها هو بذاته وأهمها على الإطلاق تلك المتعلقة بمسألة انتمائه الهوياتي المتأرجح بين أرض اسمها الجزائر، ودولة اسمها فرنسا، وطائفة اسمها الطائفة اليهودية. بمعنى آخر هل الانتماء الحقيقي يكون للأرض، أم للدولة، أم للديانة، أم أنه لا

هذا ولا ذاك لأن الانتماء الحقيقي والأصيل يكون للغة التي نتحدث بها ونبدع بها وفيها.

ينطلق دريدا من مقولة أسياسية هي بمثابة مسلمة بالنسبة إليه ومنطوقها: "**نعم أنا لا أمتلك إلا لغة واحدة، ومع ذلك فهي ليست لغتي**". ليسندها فيما بعد بافتراضين اثنين جاءا في شكل نقيضتين:

الافتراض الأول: "**لا يمكننا أن نتكلم أبداً إلا لغة واحدة**".

الافتراض الثاني: "**لا يمكننا أن نتكلم لغة واحدة فقط.**"

وواضح منذ البداية أن الاستشكال القائم هنا تتم معالجته في مستوى لغوي أفقي لا أكثر، ما يسمح بالقفز فوق تناقضات أنطولوجية، كينونية لا يمكن مجاوزتها لو تم النظر إليها من زوايا أخرى، مفاد ذلك أن دريدا يتبع في بسط مقارنته منهجاً ارتدادياً متناقضاً تجاه حالة واحدة قائمة، فتارة ينطلق من وضعه الخاص ليصل إلى نتائج أعم، وتارة أخرى ينطلق من وضع عام ليسقطه على ذاته هو، لأن هدفه الأساس هو مقياس النجاعة عبر إظهاره لهذه الحمية النوستالجية المتعلقةبوضعه كيهودي يعيش في بلد لا وطن له وهو الجزائر، ودولة لا بلد لها وهي فرنسا، وطائفة لا لغة أم (أصلية) لها هي الطائفة اليهودية.

والواقع أن شعوراً غريباً انتابني وأنا أترجم هذا النص، جعلني أسعى إلى فتح صندوق "الأسئلة المقلقة" التي لم يود دريدا إخراجها إلى النور وأهمها: ما هي الجزائر التي يتحدث عنها دريدا؟ ما هي فرنسا التي يتحدث عنها؟ ما موقفه الحقيقي مما كان يجري في الجزائر عدا بعض الاشارات العابرة حول حرمان العرب والبربر (الأمازيغ) من الامكانيات الكثيرة التي كانت متاحة حصرياً

للفرنسيين الأصلاء؟ ما موقفه مما قام به يهود الجزائر للجزائر؟ ما موقفه الحقيقي، وغير البراغماتي، من اللغة الفرنسية؟ لماذا ينظر إليها بما هي اللغة الوحيدة التي يتحدثها، ومع ذلك فهي ليست لغته الأم (الأصلية)، لأن لغته الأم (الأصلية) كان يفترض أن تكون العبرية أو العربية إلا أنه لم يتعلمها، بل لم يتمكن من فعل ذلك فيما يقول؟. كل هذا يفضي بنا إلى سؤال مكمل آخر أكثر استشكالاً وهو: هل اللغة، أية لغة، يمكن أن تكون عنصراً أساسياً من عناصر المواطنة، أم إن للمواطنة عناصر أخرى تبنى عليها؟ وبمعنى آخر أكثر تحديداً، هل إن دريدا مواطن جزائري يهودي، أم مواطن يهودي جزائري، أم مواطن يهودي - جزائري - فرنسي في الجزائر الفرنسية؟ طبعا بكل ما يترتب عن هذه التراتبية انثربولوجيا، تاريخياً، سياسياً وحتى سيما نطيقياً في النهاية.

ولكي يستجلي وضعه كيهودي في علاقته باللغة الفرنسية، وبالمحيط القائم حولها، يلجأ مرة أخرى، وهو على كل أمر يتفق فيه مع بقية اليهود، للاستنجاد بفكرة التشتيت، أي البحث فيما هو مفكك، مشتت، مبعثر، قصد الوصول إلى ما هو موحد ومتناسق. وهنا يقدم لنا بعض الأمثلة تخص مفكرين يهود كثيرين، حيث عمل على تحليل مواقفهم من اللغة، الهوية، المواطنة، الأنا، الآخر، الذاتية - المتماهية، الذاتية - المغايرة إلى آخر الكلمات - المفاهيم التي تشكل المخيال الابداعي اليهودي في المهاجر وبلدان الاغتراب. وقد استقر رأي دريدا في النهاية على نماذج ثلاثة متكاملة متناقضة في الوقت ذاته: متكاملة لجهة أم مسألة اللغة شكلت هاجساً محورياً لديها بخاصة أنها تعيش في بلدان الاغتراب كما

ذكرت، ومتناقضة لجهة أن مواقفها من اللغة، ومن اللغة الأم (الأصلية) تحديداً، متباينة أشد التباين، هذا بالإضافة إلى الفروق الداخلية فيما بينها "أي بين اليهود الغربيين أو الاشكيناز، واليهود الشرقيين أو السفرديم.

هذه النماذج هي على التوالي: فرانز روزانزفيغ Franz Rosenzweig، أنا ارندت Hannah Arendt وإيمانويل لڤيناس Emmanuel Lévinas.

فروزنزفيغ الألماني المولد واللغة، وبالتنسيق مع صديق دربه مارتن بوبر Martin Buber، تركز انشغاله على التراث اليهودي القديم ومحاولة استظهاره وتوطينه داخل المخيال الثقافي الألماني وبخاصة الكتاب المقدس الذي أشرف على ترجمته، بمعاونة بوبر، إلى اللغة الألمانية. لذا، فهو ينطلق من مقولة بسيطة وهي أن الشعب اليهودي، وعلى خلاف كل شعوب الأرض، لا يجد تمظهره الهوياتي في اللغة التي يتكلمها لأن الأب الذي انحدر منه هذا الشعب كان مهاجراً لا لغة أم (أصلية) له، بل كان دائماً يتكلم لغة الضيف. ولهذا فإن روزانزفيغ يعتقد أن اليهودي يستخدم لغة المضيف لأسباب نفعية بحتة لجهة شعوره الدائم بأنها ليست لغته، أما التاريخ، أما القداسة، أما تاريخه المقدس فهو لا يشتم رائحته إلا في رحاب كل ما هو عبراني أصيل، حتى وإن كانت اللغات العبرية القديمة كالِيدية Yaddish قد انقرضت، لأن اللغة العبرية هي الوحيدة، من بين كل لغات الأرض، القادرة على تحمل عبء الحمولة النوستالجية والتاريخية التي يزخر بها تاريخ الشعب اليهودي، فالمضيف يبقى مضيفاً، ولغته تبقى لغة تعامل إلى حين،

أما اليهودي التائه فمستقره لغته، التي لم يصادفها بعد، ودينه.

أما أرندت فموقفها مناقض لموقف روزانزفيغ، إذ وبالرغم من هجرتها المبكرة إلى أمريكا، ونشاطها الفكري المكثف هناك باللغة الانجليزية، إلا أنها لم تقطع صلتها أبداً بأصولها الألمانية أو بلغتها الألمانية، بل إنها عبرت مراراً، وبمرارة، عن عدم قدرتها على تحمل مهجرها الجديد، وحنينها الدائم إلى الأجواء الأنطولوجية الرائعة في ألمانيا، ودافعت بشكل صلب عن ضرورة الفصل بين ممارسات النازيين بحق اليهود وبين اللغة الألمانية، بما هي لغة الكينونة بامتياز، فليست اللغة الألمانية هي التي جُنّت وارتكبت الفظائع خلال الحرب العالمية الثانية، وإنما بعض الألمان وشتان ما بين الألمان واللغة الألمانية. أكثر من ذلك، فإن أرندت لم تنقطع صلتها بصديقها هيدغر واستاذها كارل ياسبرس، وحاولت مراراً الجمع بينهما إلا أنها لم توفق في ذلك لأن الشرخ الذي حدث بينهما كان من العمق بحيث لم تتمكن من ردمه.

الموقف الثالث الذي أورده دريدا هو موقف لڤيناس، وقد جاء في منزلة بين المنزلتين السابقتين، فتجربته مع اللغة، أو لنقل مع ايتيقا اللغة، تختلف عن تجربة روزانزفيغ، أو أدورنو أو أرندت، فهو وبحكم أصوله اللتوانية، واتقانه للغة اللتوانية، والروسية، والألمانية والعبرية، فإن البحث في مسألة الأصل أو اللغة الأم (الأصلية) ليس أولوية بالنسبة إليه. إذ، وبالرغم من أنه عاش، كما يقول، بكل كيانه الفكري والنفسي داخل اللغة الفرنسية، إلا أنه لا يجد حرجاً في الانفتاح على لغات أخرى، فماهية اللغة هي في النهاية صداقة وضيافة، واللغة الفرنسية، والأرض الفرنسية أحسنت

ضيافته، وهو في المقابل يقدم لها أسمى آيات الشكر والعرفان، إذن أين يتموقع دريدا داخل هذه الايتيقا الباحثة عن الجذر اللغوي والهوية المعرفية والثقافية لليهود؟

2- **البعد الهرمينوطيقي**: في هذا المستوى من التحليل، سنحاول قراءة موقف دريدا في ضوء المعطيات الهرمينوطيقية المتعلقة بالقصد، المعنى، الدلالة، لنستكشف أعماق "الهاوية" التي ما انفك دريدا يذكرنا بحضورها في حياتنا الاجتماعية، السياسية، واللغوية تحديداً. ذلك أن أغلب الدراسات المتأخرة وبخاصة تلك التي تنحو منحى هرمينوطيقياً قد وضعت دريدا أمام امتحان معرفي في غاية القساوة، إن لجهة الغموض الإبلاغي واللغوي الذي يطبعها، وهو ما كنت قد أسميته منذ أكثر من عقد من الزمن **الكتابة الغرائبية** عند جاك دريدا التي لا هم لها سوى البحث في انسجامها الأفقي الشكلاني، وإن لجهة المضامين التأويلية والأنطولوجية الكامنة في أعماقها الراكدة ومنها على سبيل المثال لا الحصر: اللغة، الآخر، الأنا، التشتيت، اللامركزة، الهامش، الحضور، الغياب، الميتافيزيقا، اليهودية، الفرنسية، العدم، الخرق، الاختراق، البنية، النسق.

إلا أن أكثر مفاهيم دريدا شهرة وخطراً في الوقت ذاته يبقى مصطلح **التفكيك** Déconstruction دون منازع، فما هي دلالته أو دلالاته يا ترى؟ وما هي تطبيقاته بعامة، وفي كتابه هذا الذي نحن بصدد تحليله وهو **أحادية الآخر اللغوية** بخاصة؟. يجيبنا دريدا في حوار مع الخطيبي، ومع صديقة الياباني، بأن التفكيك لا شيء بما أنه يحيل إلى لا شيء، وكل شيء بما انه يحيل إلى لا شيء

أيضاً، " إنه أكثر من لغة" كما عرفه لأول وآخر مرة في كتابه الذي يحمل عنوان: **مذكرات لأجل بول دومان** *Mémoires pour Paul De Man*، وأعاد تأكيده في كتابنا هذا الذي بين أيدينا، وذلك أمام دهشة أصدقائه ومريديه الذين صعقوا لهول ما سمعوا بما أنه كان يخبرهم دائماً أنه لا يجد الكلمات المناسبة لتعريف ما لا يعرف Indéfinissable، وتفكير ما لا يمكن التفكير به Impensable.

صحيح قد نعتقد مع جان غراندان أن هذا التعريف هو مجرد استفزاز لغوي سعى دريدا من خلاله للتموقع داخل البنية الثقافية الفرنسية بالرغم من أنه كان يمارس فعل التفكير على تخومها، لكن واقع الحال يكذب ذلك، فتعريفه للتفكيك بأنه أكثر من لغة قد يفيد الإحالة إلى التعددية اللغوية مع أنه هو ذاته كان يدافع، وبطريقة ملغمة، عن معنى ضيّق، إن لم نقل عنصري، للغة الفرنسية مع أنها لم تكن لغته الأم (الأصلية)، بل لغة الحاضرة Métropole التي ما فتئت تنظر إليه بعين الشك والريبة كما جاء في أحادية الآخر اللغوية. وقد يفيد عدم الإحالة إلى أية لغة أو أي معنى أو دلالة، وقد يفيد أخيراً معنى البحث فيما يتخفى وراء النصوص اللغوية الظاهرة للوصول إلى المكنونات الماهوية، وإن كان هو أيضاً يرفض كل ما يحيل إلى الماهية أو الجوهر لجهة أنها تمثل العنصر المفصلي فيما يسميه **ميتافيزيقا الحضور**، ميتافيزيقا تختزل الإرث العقلاني الغربي برمته وتختزنه، وهدف التفكيك البدئي هو تقويض هذه الميتافيزيقا أصلاً حتى لا يبقى للغرب العقلاني، التنويري ما يفاخر به أمام النزعة التفكيكية المتنامية داخل أوساط فكرية يهودية معيّنة، انطلاقاً من أن مصطلح الشتات، أو التشتيت، أو اللامركزة هو الثابت

الوحيد الذي ينبغي الأخذ به. من هنا فإن المعاني الثلاثة للصيغة الفرنسية *plus de* وهي: المعنى التعددي، المعنى الفوضوي والمعنى المجازي، تشكل كُلاً متضامناً فيما بينها بالرغم من تنافرها الدلالالي أو السيمانطيقي، تفضي في تصورنا على الأقل، إلى القول بأن هذه المكابدة اللغوية: التعددية/ الأحادية، الفوضى/ النظام، والمنطوق/ المسكوت عنه هي التي صقلت التجربة الأساسية لجاك دريدا ولفكره التفكيكي التشتيتي. فقد اكتفى في كتاباته المتأخرة مثل **مذكرات أعمى: رسم الذات وأطلال أخرى**: *mémoires d'aveugle: L'auto portrait et autres ruines* (1990) بتبني خيار اللجوء إلى المذكرات التي أخذت شكل السيرة الذاتية، أو لنقل شكل الاعترافات التي كان قد سبقه إليها، في الثقافة الغربية، كل من جان جاك روسو والقديس أوغسطين، وقد نوه غير ما مرة بهذه الطريقة الابداعية المبتكرة بعد أن كان يستهجنها في البداية.

فهو يقدم نفسه في **أحادية الآخر اللغوية** بأنه ذلك الكائن الذي لا يمتلك سوى لغة واحدة ومع ذلك فهي ليست لغته ما يفسر إحساسه الدائم بالخشية من المجهول وبأنه على وشك الرحيل: من الجزائر إلى فرنسا، من فرنسا إلى فرنسا، من فرنسا إلى أماكن أخرى. ومع أن منطق الأشياء - أو التفكيك لا يدخل ضمن هذا المنطق - كان يفترض أن يفضي به ذلك إلى رفض هذه اللغة، لغة الخارج إلا أن العكس هو الذي حدث، إذ لبس هذا الخارج ثوب الداخل، فقد عمل على تفكيك كل شيء حتى تفكك هو ذاته أمام لغة الحاضرة الناعمة والمتعجرفة في الوقت ذاته، ووجد نفسه

متماهياً مع القوة الكولونيالية الفرنسية في مستوى اللغة، ناكراً أصوله الأولى كيهودي وكاحد ابناء الأقدام السوداء كما يذكر جان غراندان في كتابه **المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا**، بل إنه ليقِر بذلك بطريقة لا مجاملة فيها حيث يقول: "فعبر التاريخ الذي أنا بصدد روايته، وبالرغم مما أجاهر به أو أدرِّسه في بعض الأحيان، فقد قمت، وأنا اقر بذلك علناً، بإدغام تعصب (لا تسامح) شائن لكنه شرس، مؤداه أن لا أقبل، بل أن لا أقدر من الفرنسية، من الفرنسية كلغة، إلا ما هو فرنسي محض" (أحادية الآخر اللغوية ص 78).

إذن، ومع أن دريدا يود أن يظهر بمظهر التعددي، المتسامح، المتحسس لمحن الآخر (والآخرين)، إلا أنه يكف عن ذلك إرادياً كلما تعلق الأمر بلغته، عفواً، بلغة الآخر، بما أنه يفترض أن لا لغة أم (أصلية) له بحسب أقواله هو.

قد يعترض معترض ويقول إن الاعترافات مجرد تفصيلات شخصية، نوستالجية، لا تؤثر في البنية الفكرية الأساسية لصاحبها، إلا أننا نقول إن الدافعية الفلسفية الحقيقية للممارسة التفكيكية عند دريدا إنما تكمن هنا بالضبط، فهي تميط اللثام عن كينونة دريدا الإنسان، وعن علاقته باللا مفكر فيه، وعن رفضه الإرادي لتماهي ذاته مع ذاته من حيث هي مجال خصب لتعدد الأفعال وتنوع الأدوار التي يمكنها انجازها. هذه العلاقة الملتبسة بين الذات واللغة تأخذ شكلاً شمولياً طرفه الأول الغرب في كليته، وطرفه الثاني الآخر / المغاير في كليته أيضاً. وهكذا ففي كتاب **هوامش الفلسفة** *Marges de la philosophie* (1972)، الذي يعد بمثابة الأنموذج التطبيقي لمفاهيم التفكيك النظرية، قام دريدا بنقد كل ما يحيل إلى

المفاهيم الميتافيزيقية الكلاسية مثل: الكينونة، الجوهر، الماهية، التاريخ، الإنسان وبخاصة مفاهيم هيدغر. ومن ثمة إلحاقه بالمنظومة اللغوية التفكيكية الأساسية بحيث تصير هي نقطة الارتكاز المفضلة في أي بحث محتمل عن الحقيقة أو أي استكشاف ممكن للتاريخ. وبما أنه لا يمكن لأية خلخلة أن تتم من المركز - الداخل - فإنه يتوجب علينا أن نباشر إجراءين منهجيين اثنين:

1- إما أن نحاول الخروج وتفكيك البناء القائم حولنا دون أن نغيّر موقعنا، ودون أن نعير أدنى اهتمام للمفاهيم والمعاني الأصلية، وهنا، ولشدة بحثنا عن الخروج أو الانفتاح قد نسقط فريسة للانغلاق.

2- إما أن نغيّر من موقعنا، ونتجه مباشرة للإقامة في الخارج، لكن هذه الإقامة لن تحقق لنا الانفصال التام عن الداخل لأنها لا تمتلك مقومات صمودها الذاتية وعلى رأسها امتلاك لغة خاصة، لذا، سنكون مضطرين حتماً للعودة إلى الداخل. وهكذا فما بين داخل وخارج، اختلاف ومطابقة، حضور وغياب، تاه دريدا في "زواريب" المعنى والدلالة لأنه اعتقد، في لحظة ما، أنه يملك القدرة على إحداث معنى ودلالة من خارج المعنى الممكن. بل من خارج اللغة.

هذه المساءلات الهرمينوطيقية القائمة في أفق أحادية الآخر اللغوية تفضي بنا إلى تساؤل هام آخر وهو علاقة تفكيكية دريدا باليهودية، الأمر الذي كان قد أشار إليه كل من أمبرتو إيكو Umberto Eco وعبد الوهاب المسيري. هذا الأخير يعتقد، وفي إطار نقده لمفاهيم ما بعد الحداثة، أن هناك علاقة بائنة بين تفكيكية

دريدا واليهودية، فمفاهيم التفكيك تتشابه مع المفاهيم القبالية أو "الكابالية" (أي التراث الصوفي الحلولي الذي يوحد بين الخالق والمخلوق ليكوّنا جوهراً واحداً هو جوهر وحدة الوجود). من هذه المفاهيم مفهوم اللا حضور واللا غياب الذي يعد مفهوماً أساساً في اليهودية، فالإله في اليهودية ليس بشراً ولكنه مع ذلك يمتلك سمات بشرية، وهو مطلق يتجاوز الطبيعة والتاريخ ولكنه في المقابل نسبي لأنه يخص اليهود فقط، بالإضافة إلى مفهوم الحضور/الغياب، المطلق/النسبي، بمعنى آخر فدريدا، ولكي يثبت مركزيته اليهودية - التي سبق وأن رفضها كما ذكرنا، كان مضطراً لنقد، بل لتحطيم مركزية أخرى شكلت غشاء نظرياً، مثالياً، سميكاً هي المركزية الغربية بعقلانيتها التنويرية وإرثها المسيحي.

من هنا، فإن إخراج دريدا من محيطه الطبيعي اللغوي، السيميائي والدلالي الناقد لميتافيزيقا الحضور، والمقترح لنظرية جديدة في الكتابة هدفها إعادة هيكلة الثنائيات الميتافيزيقية الكلاسية سيفضي به حتماً إلى صيدلية أفلاطون Le pharmakon de Platon، التي فيها من الترياق الشافي بمقدار ما فيها من السم الزؤام، إذ سيغادر مجال إبداعه أحادي الدلالة والإحالة ليلج مجالاً أشمل وأكثر تعقيداً هو مجال الهرمينوطيقا حيث تعدد المعاني والدلالات، بل الدلاليات.

إن **أحادية الآخر اللغوية** بمقدار ما هو وثيقة فلسفية تبحث قضايا اللغة، المعنى، الانتماء، المواطنة، الواحد، المتكثر، الذات، الهو، وغيرها من المصطلحات - المفاتيح التي يمكنها أن تشكل مباحث قائمة بذاتها، فإنه يعد وثيقة تاريخية، سياسية في

منتهى الأهمية، بل إنني استطيع القول أنها وثيقة دريدا الوحيدة التي كتبها بعفوية المعترف وليس بمنهجية الريبي المفكك. فإذا كان قد وضع أصبعه على ما نغص على اليهود حياتهم في الجزائر الفرنسية أو في فرنسا - الحاضرة التي كانت تحتل الجزائر، وبخاصة فيما يتعلق بمسألة نزع المواطنة الفرنسية عنهم خلال مرحلة حكومة ؟يشي، وما تبع ذلك من مظالم ومآسي، وإذا كان قد تحدث عن أهم الأسباب التي جعلته لا يستطيع تعلم سوى لغة واحدة، هي مع ذلك ليست لغته، مع أنه يدافع عنها بعنصرية كما أوضحنا سابقاً، وإذا كان يبدي بعض الأحاسيس الملتبسة حول مرابع طفولته الأولى في حي الأبيار، وحول علاقته بالعرب، بالبربر (الأمازيغ) وبكل ما كان موجوداً على الأرض الجزائرية، فإن موقفه من نقطة مركزية بالنسبة لي، ولنا، نحن الجزائريين. وهي الاستعمار الفرنسي لم يكن بمثل الصرامة والوضوح الذي عودنا عليه. لقد شعرت وأنا أترجم هذا الكتاب، والشعور غالباً ما يكون مفتاحاً أساسياً من مفاتيح المعرفة، وكأن دريدا يتحدث عن جزائر لا أعرفها، وعن فرنسا لا أعرفها، وعن تاريخ فرنسي في الجزائر لا أعرفه أيضاً. كنت أشعر أن تحليله - طبعاً إن كان هناك تحليل - للمأساة المدمرة التي عشناها في الجزائر، تحليل شكلاني، أفقي، لغوي، سيميائي، تحليل هو أقرب ما يكون لأداة عمل ضرورية لإكمال الصورة أو الحكاية النوستالجية لرحلة دريدا إلى الجزائر والمنطقة المغاربية إجمالاً، بل لرحلة دريدا من جزائر لم اتعرف عليها إلى فرنسا لم أتعرف عليها أيضاً.

في الأخير اقول إن رحلتي في عوالم دريدا كانت ضرورية

لاستجلاء خيط الحقيقة الرفيع من بين خطوط الغرائبية المزروعة داخل متونه، وكانت ضرورية بالمقدار نفسه فيما يخص التراتبية الفلسفية والمنهجية لدريدا، ذلك أن أغلب المؤلفات المتأخرة لدريدا أخذت منحى ذاتياً، نوستالجياً، بعيداً عن هالة التفكيك والغراماتولوجيا ما جعله يفقد الكثير من بريقه المنهجي، ولكنه في الوقت ذاته يستعيد أجزاء هامة من ذاتيته، من كينونته، من إنسانيته ذاتها التي حاول تشتيتها داخل أنساق مركزية هدفها الأول والأساس استبعاد الذات، ومن ثمة الإنسان كنقطة انطلاق أولانية لأية معرفة ممكنة.

ولا يفوتني هنا، وأنا أقدم للقارئ العربي هذه الترجمة العربية الأولى لهذا الكتاب، أن أوجه كل الشكر والعرفان للصديق والمفكر الكبير علي حرب الذي لم يبخل علي بتشجيعاته وملاحظاته القيمة حينما التقينا في بيروت، وأن استرجع في الوقت ذاته ذكرى الصديق الراحل بختي بن عودة الذي كان ينوي، بحسب ما أسر لي، ترجمة كتاب **احتراق الرفات**، لكن الأجل لم يمهله، إليهما، إليكما صديقيي أهدي هذا الجهد المتواضع.

د. عمر مهيبل

الجزائر في 20/ 09/ 2007

- 1 -

لنتصور أن أحدهم يقوم بتعليم الفرنسية، ما يسمى اللغة الفرنسية، اللغة التي يعمل الفرنسي على تعلمها والذي، وبموجب ذلك، يمكن أن نسمه بأنه مواطن فرنسي الثقافة، أو أن ثقافة هذا المواطن ثقافة فرنسية.

بيد أن هذا المواطن، فرنسي الثقافة، قد يأتيك يوماً ويحدثك بفرنسية فصيحة «أنا لا أملك إلا لغة واحدة، ومع ذلك فهي ليست لغتي». بل أكثر من ذلك قد يقول لك:

«**أنا أحادي اللغة** *Monolingue*، وأحاديتي اللغوية هذه كانت وستبقى بيتي، هكذا أحسها، بل وهكذا أسكنها وتسكنني، وهكذا ستبقى. إن الأحادية التي أتنفسها هنا هي بمثابة العنصر الحاسم في حياتي، عنصر لا هو بالطبيعي، ولا هو يمثل شفافية الأثير، بل إنه وببساطة، وسط بين هذا وذاك. ثم إنه عنصر لا يمكن مجاوزته أو **التنازع حوله**، حتى أنه لا يمكنني دحضه إلا عبر إقراري بحضوره الدائم داخل ذاتي ذاتها. لقد كنت دائماً أرغب في أن أكون سباقاً إلى أن أكون أنا؛ فهذه الأحادية اللغوية بالنسبة لي هي أنا ذاتي. وهذا لا يعني بتاتا بأنني أمثل صورة رمزية، أو مجازية عن ذلك الحيوان، أو تلك الحقيقة المسماة الأحادية الغوية. لكن إذا ما نظرت للأمر من خارج هذه الأحادية، فإنني وببساطة، لن أكون أنا ذاتي كما كنت من قبل. إنها تشكلني وتحملني إلى أعمق أعماق كل شيء، كما أنها تمنحني وحدة تشبه وحدة الرهبان وكأنما أوحي إلي

قبل أن أتعلم الكلام أصلا. هذه الأنانة Solipsisme، التي تعد بمثابة معين لا ينضب، هي أنا ذاتي قبل أن أكون أنا، وقبل أن أستقر.

على أن هذه اللغة، اللغة الوحيدة التي نذرت نفسي للتحدث بها، من المهد إلى اللحد، هي كما ترى ليست لغتي، والحق أنهالم تكن كذلك مطلقاً.

من هنا يبدو أنك بدأت تتلمس بجلاء مصدر عذاباتي المتتالية، ذلك أن هذه اللغة التي تخترقها من أقصاها إلى أقصاها هي مكمن آلامي، ورغباتي، وصلواتي، بل هي الدافع لكل آمالي. مع ذلك سأكون على خطأ، بل على خطأ جسيم، إذا ما واصلت الحديث عن رحلة العبور والمكان. ذلك أنني، وعبر مركب الفرنسية فقط، ليس بداخله وليس بعيداً عنه، ولكن على خط تماس يقع بموازاة شاطئه، لهذا تجذبني أتساءل، وكما فعلت دائما: هل يمكننا أن نحب، أن نتمتع، أن نصلي، أن نتهاوى من الألم أو أن نسقط في مهاوي لغة أخرى دون أن نبلغ ذلك لطرف آخر، بل دون أن نتكلم أصلاً؟

لكن قبل أن أبيّن من هذا ومن ذاك، سأقوم هنا بإبراز الاستخدام المزدوج لهذه الشفرة القاطعة التي سأعهد بها إليك دون أن أنبس ببنت شفة، سواء أكنت أعاني أم كنت استمتع داخل تلك اللغة المسماة اللغة المشتركة:

"نعم،أنا لا أملك إلا لغة واحدة، ومع ذلك فهي ليست لغتي" *"Oui,Je n'ai qu'une langue, or ce n'est pas la mienne"* صحيح قد يقول قائل إن ما تقوله هو المستحيل عينه، فمقالك بهذه الصيغة لا يستقيم بتاتاً، إنه مقال غير متسق أو غير منطقي "Inconsistent" إذا

ما استخدمنا صياغة انجليزية. وحتى إذا لم يكن غير منطقي، فهو يبدو في حده الأدنى كذلك لجهة مداخلته الرائعة التي يستحيل إسباغ معنى عليها. إن جملتك - كما يحلو لك أن تتابع - لا معنى لها، لا معنى مشترك لها، فهي تتمفصل حول ذاتها لا أكثر ولا أقل. إذن كيف يمكننا أن نمتلك لغة هي في الحقيقة ليست لغتنا، بخاصة ونحن ندعي، وبإلحاح، أنه لا يمكننا أن نمتلك إلا لغة واحدة. إنك تسوق هنا شهادة احتفالية يمكن إظهار تناقضها المنطقي دونما صعوبة تذكر، أكثر من ذلك، إن جملتك تزج بنفسها داخل تناقض منطقي معطوفاً على **تناقض تداولي أو إنجازي** حتى ليتعذر معه على أي ملاحظ، وأمام هذا الوضع الخطير، أن يباشر أي تشخيص دقيق لما تقوله. على أن هذه الإشارة الانجازية في مستوى التعبير تأتي كدليل إثبات فعلي يناقض ما ادعته الشهادة سالفة الذكر، من أن هناك حقيقة ما داخل سراديب هذا الضياع "الذي أعيد وأكرر من أن حقيقته لا يمكن أن تكون حقيقتك".

إن من يتحدث هنا سواء أكان هو الذات المعبّرة أو المتحدثة، أو كان أنت، نعم أنت، بما أنك صرت موضوعاً للغة الفرنسية، قد يفعل في نهاية المطاف عكس ما كان يقوله، ولا غرابة في ذلك، فالأمر يبدو كما لو أن أحدهم كان يمارس الكذب، في الوقت ذاته، يقوم بإفشاء أمر كذبه هذا للآخرين، وعليه سيصبح الكذب معول هدم لصدقيتك البلاغية، فالكذب يفند في اللغة باللغة، إذ سيثبت، **وبطريقة عملية**، عكس مزاعم الإثبات واليقين المحمّلة في مقالك لذا، فلن نكل من إدانة العبث الكامن فيه.

لكن قد يتساءل آخر لماذا تبقى هذه الإدانة؟ ولماذا يستمر هذا

الوضع إذن؟ إنها تبقى على ما هي عليه لأنك أنت ذاتك لم تتمكن من إقناع ذاتك المتماهية، فأنت كثير الاعتراض، دائماً الاعتراضات ذاتها، إنك تجهد نفسك ودائماً أيضاً، بالحشو نفسه.

من جهة ثانية، إنك وبمجرد قولك بأن الفرنسية، أي اللغة الفرنسية تحديداً، اللغة التي تتحدثها، والتي نتحدثها جميعنا، والتي بموجبها فقط يمكن لأقوالنا أن تكتسب معنى واضحاً، هي ليست لغتك مع أنك لا تملك لغة أخرى، فإنك تكون قد وقعت بين مخالب تناقض إنجازي متعلق بالتعبير فقط، بل إنك تكون قد أسهمت في مضاعفة العبث المنطقي المتمثل في الكذب. وذلك حتى لا نقول بأنك قد أدخلت ما يمكن أن نسميه الحنث باليمين إلى قلب المنطوق ذاته. ذلك أن السؤال المؤرق هنا يتلخص فيما يلي:

كيف يمكننا الإقرار بأننا نملك لغة واحدة ونقر في الوقت ذاته بأنها ليست لغتنا؟ ومن ثمة ما هو السبيل لمعرفة ذلك، وكيف يمكننا الادعاء بأننا نعرف ذلك؟ بل إننا لنتساءل: ما الحكمة الكامنة وراء محاولتنا اقتسام هذه المعرفة مع غيرنا ما دام أن هذا الغير ذاته، منظوراً إليه في أفق المقال سالف الذكر، هو أيضاً لا يعرف، ولا يستخدم إلا لغة واحدة؟

على رسلك، أرجو أن لا تكرر انتقاداتك السابقة، كما أرجو أن تبيّن لنا بالمرة من المقصود بمؤاخذتك حول "التناقض الإنجازي" التي تسوقها اليوم على عجل: هل هي موجهة للمصابين بالحيرة، والمندهشين؟ هل هي موجهة لكل المتسائلين، أم لكل القلقين والمحرجين؟ على كل إن بعض المنظرين الألمان، والانجليز، والامريكيين، اعتقدوا أنهم وجدوا هنا استراتيجية نقدية

مثلى، حيث تخصصوا فيها وجعلوا منها سلاحاً سخيفاً. ذلك أنهم يقومون، وعلى فترات متقطعة، بتوجيه سهام نقدهم إلى هذا الخصم أو ذاك، مع أمنية باطنية في أن يكون هذا الخصم فيلسوفاً فرنسي اللغة. هذا، دون أن ننسى، أن بعض الفلاسفة الفرنسيين أنفسهم ما انفكوا يساعدونهم على ذلك ويقدمون لهم التغطية الوطنية إذا ما كان الأمر يتعلق بالأعداء أنفسهم "أعداء الداخل"، وهناك أمثلة على ذلك.

هذه اللعبة الصبيانية لا تتضمن إلا عدة سجالية بائسة واحدة تتلخص إوَاليتها فيما يلي: "بما أنك ما فتئت تقوم بطرح الأسئلة المتعلقة بموضوع الحقيقة، فإن ذلك يعني بداهة بأنك ما زلت لم تؤمن بعد بأن هناك حرية، بل إنك ما زلت تنكر إمكانية قيام حرية أصلاً!. إذن كيف يمكننا، والحال هذه، أن نحمل أقوالك على محمل الجد فيما يخص ادعاءاتك حول الحقيقة، وذلك بدءاً من أسئلتك المزعومة ذاتها؟. ان ما تقوله يجانب الصواب، على الأقل لجهة تساؤلاته حول الحقيقة، حتى ليدفعنا ذلك إلى القول بأنك ارتيابي (أو متشكك)، نسبوي Relativiste، عدمي، وبأنك لست فيلسوفاً جدّياً بالمرة! وإذا ما واصلت على هذا النهج فإننا سنحشرك إما في قسم البلاغة أو في قسم الأدب. أما إذا ما واصلت عنادك، فإن ما قد يكون إدانة أو نفياً لك في البداية سيتحول لاحقاً إلى ما هو أخطر بكثير، حيث سنقوم بحجزك داخل قسم السفسطة. ذلك أن ما تقوم به هو في حقيقة الأمر أقرب ما يكون إلى الكذب، إلى الحنث باليمين والشهادة الكاذبة، إنك لا تعي ما تقول، بل إنك تنوي تضليلنا في نهاية المطاف.

لذا، وبنية التأثير فينا ودفعنا إلى تبني قضيتك، فإنك تلبس لبوس ذلك المنفي أو العامل المهاجر الذي يزعم، وبلغة فرنسية، أن الفرنسية كانت دائماً لغة أجنبية بالنسبة إليه! فإذا ما سلمنا بصحة ذلك، فإنه سيكون من المتعذر بالنسبة إليك قول ذلك، أو على الأقل، قوله بطريقة سليمة".

(في البداية أود تنبيهك إلى أنني لم أتحدث بعد عما تسميه "لغة أجنبية"، فعندما أقول بأن اللغة الوحيدة التي أتكلمها ليست لغتي، فإن ذلك لا يفضي بداهة إلى القول بأنها تعد لغة أجنبية بالنسبة لي، فهناك بون شاسع بين المعنيين). ثم إن القول بأن هذه المسألة مسألة قديمة قدم الفلسفة ذاتها، فإن ذلك لا يشكل أدنى خرق للقانون والنظام، اللهم إلّا لدى من يتميّزون بذاكرتهم القصيرة ونقص تجربتهم. وعلى كل، فأنا لا أنوي مباشرة النقاش حول هذه المسألة اليوم لأنني منشغل بأخرى، ذلك أنه، وبالرغم من أنني لم أحاول - كما هي الحال في الغالب - الإجابة عن هذا النوع من الاعتراضات، فإن ذلك لم يقم حائلا، في حينه، بيني وبين التعامل بحذر مع ذلك الاستفزاز المتضمن في حيثيات "التناقض الإنجازي" المزعوم، وذلك في اللحظة ذاتها التي تحولت فيها هذه الاعتراضات إلى نوع من اليمين الغموس والتضاد المنطقي.

من هنا، فإنه ليس في مقدور أي كان أن يمنعني من أن أردد على مسامع من يود الاستماع، وإن وقع ذلك على مرأى الجميع "من الممكن أن يكون أحدنا أحادي اللغة (وأنا كذلك بالفعل؟)، وأن يتكلم لغة ليست هي بالضرورة لغته". مع ذلك فهذه المقولة في حاجة إلى برهنة، ولكي تتم البرهنة عليها لا بد أولا من أن

نستوعب موضوع البرهنة ذاته، ما الذي ننوي قوله وما الذي في مقدورنا أن نقوله، وما هي الحدود التي يمكن لجرأة القول لديك أن تصلها علماً أنك، ومنذ مدة طويلة، كنت دائما تدعو إلى تأمل تفكير لا ينفتح إلّا على الخواء في النهاية.

لكن، وبالرغم مما سبق، أرجو أن تتقبل مني هذه المقاربة التي تنظر إلى " البرهنة " بما هي محل لشيء آخر، وهذا الشيء الآخر، هذا المعنى المغاير، هذه اللحظة الأخرى للبرهنة هي بالضبط ما يهمني تحديده. حسناً، قل ما تريد، حدد لنا معنى ذلك، وما هو هذا الإقرار الذي تزعم بأنك وقعته؟

- 2 -

في البداية، وقبل أن أباشر هذه المقاربة، سأضع هذين الافتراضين على بساط البحث، بالرغم من أنهما يبدوان غير مفهومين. ذلك أنهما، وبالإضافة إلى تناقضهما الداخلي، فإنهما يتناقضان مع بعضهما بعضا. فكل منهما يأخذ شكل قانون معين في كل مرة، حتى ليمكننا أن نسمي علاقة التنافر هذه، القائمة بين هذين القانونين، **بالنقيضة**. والآن يمكنك أن تزف إلينا هذين الافتراضين. حسناً:

1 - **لا يمكننا أن نتكلم أبداً إلا لغة واحدة** *On ne parle jamais qu'une seule langue*.

2 - **لا يمكننا أن نتكلم لغة واحدة فقط** *On ne parle jamais une seule langue*.

وبيّن أن الافتراض الثاني يسير في الاتجاه الذي يتبناه صديقنا الخطيبي في التقديم الذي وضعه لأحد كتبه المخصصة للازدواجية اللغوية، وذلك في معرض تعريفه **بإشكاليته وبرنامجه**، لذا، فمن المفيد أن استعين به هنا:

> "لو لم تكن هناك اللغة (كما هي الحال بالنسبة لأشياء أخرى)، لو لم تكن هناك أحادية لغوية مطلقة، فإنه يبقى علينا أن نحدد ما معنى لغة أم (أو أصلية) "معيّنة" مأخوذة عبر تقسيماتها الفاعلة المختلفة، وما يمكن لهذه اللغة أن تحصله إذا ما طُعّمت بلغة أجنبية أخرى علماً أن التطعيم هنا، هو مدعاة للتشرذم والضياع، إذ لا يمكن العودة لا إلى اللغة الأم (الأصلية) ولا إلى اللغة الأجنبية، وإنما

إلى منزلة بين المنزلتين القائمتين وعنوانها اللا ابلاغية أو اللا تواصلية. هذا الأمر ستكون محصلته لغة هجينة في مستوى الكلمة وفي مستوى الكتابة أيضاً [...]»(*)

إذن عندما تقول "التقسيم" أو "التقسيم الفعال"، فإن ذلك يضمر رغبة حميمة في نوع الكتابة التي تحلم بممارستها يوماً، كما يبيّن لنا أيضاً لماذا يوجد هناك تعليلان اثنان وليس تعليلاً واحداً، في الوقت الذي يوجد فيه سبب واحد، ولكنه سبب متمفصل حول ذلك "التقسيم" المزعوم، وبالمرة يفسر لنا لماذا يسكننا، وبشكل دائم، شعور بالقلق، وميل دائم إلى اكتشاف التاريخ والتنقيب عن الأصل. ففي هذا المكان المسكون بالغيرة، والذي تتقاسمه أحاسيس الانتقام والضغينة، في هذا الجسد المنهمم بتقسيمه الذاتي الذي لا يولي كبير اهتمام لعمل الذاكرة، فإن الكتابة تتحول إلى عارض من العوارض المرضية.

وحتى إذا ما نسيت ذلك، فإنها تقوم باستدعاء الذاكرة، ذاكرة ستصبح هي ذاتها عنوان الكتابة، بل إن نزوة جنيالوجية عمياء قد يطيب لها المقام وتجد دعماً ورعاية حتى ولو تعلق الأمر بتقسيم يخص ذلك القانون المزدوج (المضاعف)، أو يخص ذلك النفاق المتعارض مع هذا الاشتراط المتعلق بالانتماء:

1 - لا يمكن أبداً أن نتكلم إلا لغة واحدة، أو بالأحرى لسانا واحدا.

2 - لا يمكننا أن نتكلم لغة واحدة فقط، أو لا وجود للسان خالص.

(*) حول الازدواجية اللغوية Du bilinguisme, De noël, 1985, p. 10 .

فهل هذا ممكن؟ إنك تطلب مني أن أصدقك في الوقت الذي عملت فيه على إلحاق مفهوم "اللسان" "idiome" "باللغة". ألا تعلم أن هذه الخطوة تنتج عنها تغييرات أخرى، فلغة قوم ليست هي لسانهم بالضرورة، ولسان قوم ليس هو لهجتهم بداهة، وهكذا.

في الواقع أنا لا أتجاهل أهمية هذه التمايزات، فالألسنيون (علماء الألسنيات) والعلماء بعامة يمكنهم أن يحصلوا أسباباً وجيهة لجهة إقامتها، مع أنني أعتقد أنهم لن يستطيعوا المحافظة على طابعها الصارم، على الأقل فيما يخص بلوغ حدها الأقصى إذا لم نضع في حسباننا، وضمن سياق محدد تحديداً دقيقا بشكل دائم، مجمل المعايير **الخارجية** المكمّلة، سواء المعايير" الكمية مثل (الأقدمية، الاستقرار، الامتداد الجغرافي لحقل الكلمة) أو المعايير "السياسية-الرمزية" مثل (الشرعية، السلطة، هيمنة "لغة" معيّنة على الكلمة، على لهجة معيّنة وعلى لسان معيّن)، علماً بأنني لا أعرف كيف يمكننا الاهتداء إلى إيجاد ملامح **داخلية وبنيوية** تمكننا من مباشرة تمييز صارم بين اللغة واللهجة واللسان.

وعلى كل، وحتى وإن كان ما قلته موضع أشكلة، فإنني عملت دائماً على التموقع داخل وجهة النظر التي ترى، على الأقل فيما اتفقنا عليه مؤقتاً، أن هذا التميز ما زال لحد الآن معلقاً. ذلك أن الظواهر التي تشكل موطن اهتمامي هنا، هي تحديداً تلك الظواهر التي قامت بخلط تلك الحدود وعملت على مجاوزتها، ومن ثمة محاولة إظهار مكرها التاريخي وعنفها أيضاً. وبمعنى آخر إظهار علاقات القوة الكامنة فيها، والتي ما انفكت تعمل على تثمينها واستثمارها، وعليه فالمظاهر الأكثر تأثراً بالرهانات القائمة حول

اللغات المستخدمة في المستعمرات "Créolisation" يصير لها وزن أكبر من غيرها.

حسناً، لقد قبلت هذا الاتفاق المقترح، لكن يجب أن أنبهك مرة أخرى إلى انه ما دمت تود سرد تاريخك فعليك أن تستشهد بما يخصك، وأن تتكلم فيما يخصك وفيما لا يخصك، فأنا ما زلت أثق بما تقوله حتى الآن. ثم أليس هذا ما نفعله بالضبط، أي قول ما يخصنا وما لا يخصنا، عندما يبدأ أحدنا بالكلام، أي عندما يبدأ بسرد شهادته، لذا فأنا أعتقد أن قيام هذه النقيضة ممكن، بل إن هذا هو ما أود البرهنة عليه، أو لنقل أن استخدام البرهنة يفضي منطقيا إلى استدعاء "الأسباب الحقيقية" للظواهر وإخراجها إلى العلن، وأن هذا الاستدعاء يفضي بي إلى التذكر، تذكر ذاتي كما هي ذاتي.

أما ما أود تذكره من ذاتي فهو تلك الملامح القاسية المفضية إلى الاستحالة، حتى ليمكننا القول أن مفهومي الاستحالة والقسوة يمكن أن يفضيا إلى ما هو أبعد من ذلك وهو المنع. وهنا تستوقفنا ضرورة من نوع خاص، ضرورة قوامها المستحيل - الممنوع Impossible - Interdit (" إنه لا يمكنك فعل ذلك! إنه غير ممكن، بلى إنه ممكن!. ولكن لو كنت مكاني ألن تقوم بفعل ذلك. بل إنك ستقتصر على فعل ذلك فقط! لا لن تفعل ذلك! ") - ضرورة موجودة وتمارس فعلها في مستوى الترجمة، ترجمة تختلف عن تلك الترجمة التي رسمها الاتفاق سالف الذكر، وعن المعنى المشترك وعما يقصده بعض جهابذة الترجمة، ذلك أن هذه المصادرة المزدوجة:

- **لا يمكننا أبداً أن نتكلم إلا لغة واحدة. . (نعم ولكن).**

- **لا يمكننا أن نتكلم لغة واحدة فقط.**

هي في الواقع ليست وليدة القانون الخاص لما يمكن أن نطلق عليه اسم الترجمة، بل إنها القانون ذاته بما هي ترجمة، قانون يقع على حافة الجنون ومع ذلك فأنا مستعد لإقراره. وكما ترى بأم عينيك فالأمر ليس فيه ما يثير الطرافة، أمر قلته الآن وسأردده فيما بعد. لقد كنت أرتاب دائماً في أن القانون مثله في ذلك مثل اللغة، هو أقرب ما يكون إلى الجنون، أو أنه المكان الأوحد والشرط الأول لإمكان الجنون على أقل تقدير.

أما مناسبة هذا الحديث، فهو ذلك الملتقى الدولي الذي التأم في مدينة لويزيانا Louisiane إذا ما كنت تتذكر ذلك. ولويزيانا، تلك المدينة المضيافة هي ليست مدينة فرنسية، ضيوفها، هذه المرة، في غالبيتهم "فرانكفونيون" Francophones **ينتسبون**، ولغرائب المصادفات، إلى أمم متعددة وثقافات متباينة ودول مختلفة، مع كل ما تحمله هذه الاختلافات من مشاكل تتعلق **بالهوية**، والتي ينظر إليها الآن بمنتهى السذاجة والتسطيح.

وواضح أن من بين كل المشاركين، هناك مشاركان اثنان: عبد الكبير الخطيبي وأنا ذاتي، يتقاسمان قدراً واحداً معطوفاً على صداقة قديمة تمتزج فيها مؤثرات القلب والذاكرة، ويعيشان "وضعاً" خاصاً بالنسبة للغة والثقافة، وضعا هو أقرب ما يكون إلى القانون، هذا القانون يأخذ في وضع كالوضع الموجود "في بلدي"، عنواناً مميزاً: "الفرانكو - مغاربي" "Franco - Maghrébin".

ثم إنك، وما دمت من أولئك الذين ما زالوا يتمسكون بإرادة

القول، فإنني سأسألك عن طبيعة هذه السمة الجامعة؟ ماذا تريد أصلاً؟ **ما معنى فرانكو - مغاربي؟** ومن هو "الفرانكو - مغاربي".

بداية لكن نعرف من هو الفرانكو- مغاربي لا بد أن نعرف قبل ذلك ما معنى الفرانكو- مغاربي، أو ما دلالة "فرانكو-مغاربي"؟. لكن، إذا قلبنا الأمر على وجهه الآخر، من خلال قلبنا لاتجاه حركية التفكير القائمة، ولكي نحدد بالمقابل، ما معنى أن يكون أحدهم "فرانكو- مغاربي"، فإنه يتوجب علينا معرفة من هو الفرانكو- مغاربي وبخاصة من هو الفرانكو- مغاربي الأكثر أصالة. من هنا، ولجهة تبيّن ذلك، سنلجأ هنا إلى طريقة منطقية هي أقرب ما تكون إلى المنطق الأرسطي، فلمعرفة أيهما أكثر أصالة، أو أيهما أحسن من الآخر مثلاً، سنركز جهودنا على معرفة الكائن ذاته، حتى نتمكن في خطوة لاحقة من تفكير الكينونة بما هي الإحالة الممكنة لكل ما هو عام. وعليه تصير هرمية الانتقال من الكينونة إلى الكائن، ومن الثيولوجيا إلى الأنطولوجيا وليس العكس (بالرغم من إقرارنا هنا بأن الأمور متشابكة إلى حد بعيد، لكن ليس هذا موضوعنا). وبحسب إحدى القواعد سارية المفعول، والتي ألفتها الفلسفة من قبل، فإن من يملك مفاتيح إثبات من هو الأكثر أصالة، والأكثر صرامة، ومن هو الفرانكو - مغاربي الأكثر أصالة، هو ذاته من يملك أحقية فك رموز من هو الفرانكو - مغاربي بعامة. بل إن استكشاف ماهية الفرانكو - مغاربي ذاتها تتم انطلاقا من الأنموذج الخاص المتعلق "بالفرانكو - مغاربي الأكثر أصالة"، أو الفرانكو - مغاربي **بامتياز**. بل إننا أيضاً، وفي خطوة غير مؤكدة، سنفترض بأنه كان هناك ما يشبه الوحدة التاريخية بين فرنسا والمغرب العربي،

وأن هذه الوحدة لم توضع موضع تنفيذ وإنما بقيت دائماً في مستوى الوعد أو الادعاء. وهنا، فيما أعتقد، الجوهر الحقيقي للمسألة التي ينبغي أن نتحدث عنها، وأن لا نتوقف عن الحديث عنها باستمرار حتى وإن تم ذلك تحت يافطة التقصير أو الإهمال. على أن خاصية الاتحاد (التوحد) هذه لن تؤدي إلى إصلاح ذات البين أو تهدئة أي من الآلام أو العذابات المختلفة، بل إنها، وعلى النقيض من ذلك، قد تسهم في مضاعفة الرعب وتعميق الجراح، ذلك أن خاصية الاتحاد (التوحيد) غير قادرة بالمرة على حجب الاحتجاجات، وصرخات الغضب والألم، وقعقعة السلاح، وأصوات الطائرات والقنابل.

- 3 -

لنضع فرضية، ولنتركها تعمل على رسلها.

لنفترض أنني، وفي أحد الملتقيات المنعقدة في مدينة لويزيانا، بعيداً عن بلده وعن بلدي أيضاً، بعيداً عنا جميعاً، قمت ودونما نية في أن أجرح عبد الكبير الخطيبي، بتوجيه الإفادة التالية إليه محملة بكل معاني الود والمحبة التي أكنها له. فماذا حملت هذه الإفادة العلنية يا ترى؟

لقد كان مضمونها على نحو تقريبي كالتالي: "عزيزي عبد الكبير، ألا ترى معي بأنني الأولى بلقب الفرانكو - مغاربي. بل إنني قد أكون الفرانكو - مغاربي الوحيد هنا. فإذا ما كنت قد أخطأت، أو كنت قد أسأت استخدام هذا النعت، فإنني على يقين من أن هناك من سينقض قولي، لذا سأحرص بالغ الحرص على أن يكون قولي مبرراً بما فيه الكفاية. بداية لننظر حولنا ولنباشر ترتيب المعطيات التالية:

أ - يوجد بيننا فرنسيون فرانكوفونيون لا صلة لهم بالمغاربيين، هم الفرنسيون المنحدرون من أصل فرنسي، أي أنهم مواطنون فرنسيون، موطنهم الأول والأخير فرنسا.

ب - يوجد أيضاً فرانكفونيون لا صلة لهم لا بالفرنسيين ولا بالمغاربيين مثل: السويسريين، والكنديين، والبلجيكيين، أو الأفارقة المنحدرين من مختلف الدول الإفريقية.

جـ - وأخيراً يوجد أيضاً مغاربيون فرانكفونيون ليسوا

بفرنسيين، ولم يكونوا أبداً كذلك، أي مواطنين فرنسيين، كما هي حالك أنت والمغاربة الآخرين أو التونسيين.

وكما ترى جلياً هنا، فأنا لا أنتمي إلى أي من هذه المجموعات المحددة، فأين تصنفني يا ترى؟ وهل ستبتكر لأجلي صنافة Taxinomie جديدة.

من هنا، فإن فرضيتي البسيطة هي أنني هنا، وقد أكون هنا وحيداً، أو **الوحيد** الذي يمكنه أن يكون مغاربياً (وهو نعت لا يؤدي معنى المواطنة) ومواطناً فرنسياً في الوقت ذاته، قد أكون هذا وقد أكون ذاك أيضاً، وقد يكون من الأحسن أن أكون هذا وذاك معاً في آن واحد ومنذ **الولادة**. أليست مفاهيم مثل الولادة، الجنسية المكتسبة بالولادة، الثقافة الأصلية هي مفاهيم تمس صلب موضوعنا؟ (من المفيد أن نخصص ملتقى آخر نناقش فيه مسألة اللغة، الجنسية، الانتماء لثقافة معيّنة ولو كان ذلك **عبر الموت**، ونبش المقابر، وسنبدأ هنا باستقصاء سر أوديب Oedipe المخفي في كولونيا Colonne: سنبدأ من تقصي تلك القوة التي مكنت هذا "الغريب" من أن يبسط سيطرته على "غرباء" آخرين، إلى أن نصل إلى سر الأسرار المخفي في محطته الأخيرة، ذلك السر الذي احتفظ به لنفسه أو أسرّ به إلى حرس تيزي Thésée[*] في مقابل

(*) **تيزي** *Thésée*: بطل أثيني، ابن **بوسيدون** *Posseidon* **وايترا** *Aithra*. بعد أن أمضى طفولته في **تريزان** *Trézène* عاد إلى أثينا وتخلص من أعدائه الواحد تلو الآخر. تميّز بالشجاعة ونكران الذات وكان محبوباً من قبل الشباب اليوناني. تغلب على النساء **الأمازونيات** *Les Amazones*، اللواتي استولين على **أتاكيا** Attique، برفقة صديقه **بيريتوس** *Pirithoos* (المترجم).

خلاص مدينته والأجيال اللاحقة، سر بخل به حتى على فلذات كبده (بناته) حارماً إياهن من البكاء عليه أو حتى القيام "بواجب العزاء").

والواقع أننا لم نجد هنا نقاط توافق بين حديثنا عن اللغة التي يطلق عليها عادة اللغة الأم أو الأصلية Langue maternelle، وحديثنا عن الميلاد، إن لجهة علاقة الميلاد بالأرض أو لجهة علاقته بالدم، وهو أمر يختلف تمام الاختلاف عن الميلاد داخل اللغة، وبين العلاقات القائمة بين الميلاد، واللغة، والثقافة، والجنسية والمواطنة.

لذا، فإن قولي بأن "حالتي" لا تنضوي تحت أي من المجموعات الثلاث المقدمة هي في الوقت ذاته فرضيتي الأساسية التي أود بلورتها هنا، بل إنها قد تكون مبرر وجودي الوحيد في هذا الملتقى. هذه هي الإفادة التي كنت أود تبليغها لعبد الكبير الخطيبي.

في البداية أود أن تنصت لي، على الأقل فيما يخص هذه الحكاية التي أقوم بسردها هنا، أو على الأقل تلك التي أود سردها فيما يشبه الإجابة، سيميائياً وفي مستوى القراءة، عن موضوع هذا الملتقى الذي يحمل عنوان **إحالات من عالم آخر** *Renvois d'ailleurs* أو- *Echoes From else where*، والذي سأحاول اختزاله في هذه الحكاية القصيرة.

وعليه إذا ما كان قد تملكني شعور بأنني الفرانكو - مغاربي الوحيد هنا، فهذا لا يمنحني حق الحديث باسم شخص آخر وبخاصة باسم أي كيان فرانكو - مغاربي حيث حرب الهوية ما تزال على أشدها. وهو الأمر الذي سأعود لمعالجته فيما بعد، على الأقل

فيما يخصني، فهو ما يزال مرتعاً لشتى أنواع الغموض.

إن سؤالنا المفصلي هنا يتمحور دائماً حول الهوية، ذلك أن التساؤل حول هذه الهوية. بما هي مفهوم شفاف ينكشف على ذاته كان محل افتراض وبطريقة عقائدية، ضمن سيرورة المناقشات القائمة حول الأحادية الثقافة Monoculturalisme أو حول التعددية الثقافية multiculturalisme، أو حول الجنسية (التابعية) والانتماء بعامة. على أننا، وقبل أن نبادر إلى تبيان هوية الذات يجدر بنا أن نتساءل حول ماهية الذات - المتماهية ipséité، ذلك أن هذه الأخيرة لا تختزل فحسب في تلك القدرة المجردة على قول " أنا " في مستهل كلامها، بل إنها قد تعني في المقام الأول إمكانية قول "أنا أستطيع" - عوضاً عن قولي المجتزأ "أنا" - وذلك عبر سلسلة نجد فيها أن واسطة العقد "pse" في تراتبية الإحالة على الذات - الذاتية ipse لم تعد تنفصل عن السلطة، التحكم أو بسط السيطرة في النهاية *hospes*.

(لا بد أن أشير هنا إلى أنني اعتمد في مقاربتي هذه على السلسة الدلالية التي تنجر هيكلية الضيافة hospitalité كما لو كانت فعلاً عدائياً - *hospitis ho spes hosti-pet, posis despote portere, potis sum, pot est, potest, pot- sedere, possidere, compoes... etc*)[*]

(*) هذه في الواقع هي السلسلة التي أقامها كما نعلم بنفنست Benveniste، والتي قام بعرضها في مواقع شتى، وتحديداً في فصله الرائع المخصص للضيافة hospitalité (معجم مصطلحات المؤسسات الهندو-أوروبية *le vocabulaire des institutions indo-européennes* t1, p. 87, Sq, Minuit, 1969) هذا الفصل قد أعود إليه فيما بعد بطريقة أكثر استشكالا أو قلقاً.

إذن، أن تكون فرانكو - مغاربياً على ما هي عليه الحال بالنسبة لي لا يعني مطلقاً إضافة معيّنة أو ثراء يخص الهويات، الأوصاف، والأسماء، بل إن ذلك يشكل، وعلى النقيض مما قد يتبادر إلى أذهاننا، **اضطراباً في مستوى الهوية**، علماً أنني، وبالإضافة إلى درايتي الكافية بدرجة الخطر الكامنة في طيات عبارة " اضطراب الهوية " فإنني لا أستبعد الاسقاطات السيكو - باتولوجية (المرضية) والسوسيو - باتولوجية. ذلك أنني، ولكن أقدم نفسي بوصفي ذلك الفرانكو - مغاربي، فقد لجأت للانضواء تحت لواء **المواطنة** *citoyenneté*، مع أن مفهوم المواطنة، في حدود ما نعلم، لا يمكنه تحديد ماهية المشاركة الثقافية، اللغوية والتاريخية المرجوة، بل إنه لا يمكنه تغطية كل هذه الالتواءات والتجاذبات، بالرغم من أنه ليس محمولاً سطحياً أو بنية فوقية تطفو فوق سطح التجربة، خاصة إذا ما علمنا أن هذه المواطنة هي بكل حالاتها **عارضة**، **حديثة العهد**، **مهددة** وأكثر اصطناعية من أي وقت مضى.

هذه هي "حالتي"، حالة مميّزة وفريدة في الوقت ذاته، والتي أود الحديث عنها هنا. فقد حصلت على هذه المواطنة، كما يعلم الجميع، خلال مسيرتي الطويلة، وهو الأمر الذي قد يشاركني فيه الكثير من الأمريكيين الحاضرين معنا في هذا الملتقى، لكن ما لا يشاركني فيه أحد من هؤلاء الأمريكيين، هو أنني فقدت هذه المواطنة ذاتها، **وخلال مسيرتي الحياتية ذاتها أيضاً**. وإذا ما حدث وانتزعت هذه المواطنة ذاتها من أحدهم (المواطنة على كل حال لا تعني جواز سفر فقط، أو "بطاقة خضراء"، أو حصانة، أو حق انتخاب) فهل حدث أن انتزعت المواطنة من مجموعة بشرية

بكاملها؟ علماً أنني لا أقصد هنا مجموعة عرقية بعينها يكون هدفها الانشقاق، أو الانعتاق من ضغط الدولة - الأمة Etat - nation، أو تلك المجموعة الباحثة عن التخلص من مواطنتها القائمة لكن تبحث عن أخرى في دولة مؤسسة حديثاً، والأمثلة الموضحة لهذه التحولات هي من الكثرة بحيث لا يمكن عدها.

في الواقع أنا أتحدث هنا عن كل جماعي أو تشاركي (جمهرة من الناس تضم عشرات أو مئات أو آلاف الأشخاص)، عن مجموعة "إتنية/عرقية" أو "دينية" مفترضة،استفاقت ذات يوم لتجد أن دولة ما، الدولة التي تمثلها، قد حرمتها من نعيم مواطنتها دونما طلب استئذان منها، وأنها، وفي غمرة قرارها الأحادي والمتسرع، **نسيت أن تسبغ عليها مواطنة أخرى.**

نعم، لقد عايشت وضعاً يشبه هذا الوضع، فقد فقدت، مع آخرين، المواطنة الفرنسية ثم استرجعتها فيما بعد، علماً أنني، وخلال السنوات التي كنت فقدت فيها هذه المواطنة لم أحصل إطلاقاً على أخرى بديلة، ومع ذلك لم أطلب شيئا بالمرة. كل ما قمت به هو أنني بقيت أراقب كيف انتزعت مني هذه المواطنة، وبطريقة شكلية قانونية وموضوعية، على الأقل، في حدود ما أعلم. وفجأة، وذات يوم، وذات "يوم جميل"، ودون أن أقدم أدنى طلب بذلك، فأنا في الواقع كنت يافعاً ولا دراية لي بتلك المسائل السياسية، أعيدت لي مواطنتي سالفة الذكر، وقد أعيدت لي من قبل الدولة التي لم يسبق لي أن تكلمت إليها أبداً. هذه الدولة التي جددت اعترافها بمواطنتي هي على كل ليست "الدولة الفرنسية" التي أنشأها بيتان Pétain، وكان ذلك في سنة 1943، حيث لم تكن

قدماي قد وطأتا بعد "فرنسا".

لذا، أعتقد أن تحديد ماهية المواطنة لا يتم بهذه الطريقة، إنه أمر غير طبيعي، مع ذلك فإن براعتها وعرضيتها يظهران بشكل أفضل كما لو كانا وميضاً يبين عن رؤيا مفضلة، كلما كانت فترة دخول هذه المواطنة سياج الذاكرة الجماعية أقرب زمنياً، مثال ذلك المواطنة الفرنسية التي أسبغت على يهود الجزائر عبر مرسوم كريميو Crémieux لسنة 1870، أو كلما أصيبت هذه الذاكرة بصدمة الحرمان من هذه المواطنة، مثال ذلك أيضاً فقدان يهود الجزائر أنفسهم للمواطنة الفرنسية بعد ذلك بأقل من قرن، هذا هو الوضع الذي كان قائماً "تحت الاحتلال" كما يقال.

أجل، نقول "كما يقال"، لأن الحقيقة هي غير ذلك تماماً، فالجزائر لم تحتل أبداً، وعندما أقول إن الجزائر لم تحتل أبداً، فإن ذلك يعني أنها لم تحتل من قبل المحتل الألماني. فنزع الجنسية الفرنسية عن يهود الجزائر، بكل ما نتج عنه، كان فعلاً فرنسياً بحتاً، فقد قرروا ذلك لوحدهم دون إشراك أحد، وهو الأمر الذي ربما كانوا يحلمون به دائماً.

أما فيما يخصني، فقد كنت يافعاً في تلك المرحلة، ولم يكن في مقدوري أن أفهم بشكل جيد - والواقع أنني ما زلت كذلك - ما معنى المواطنة، وما معنى فقدان هذه المواطنة ذاتها؟ مع ذلك، فأنا على يقين من أن هذا المنع أو الاستبعاد - وكمثال على ذلك المنع من دخول المدارس المخصصة للتلاميذ الفرنسيين حصراً - يمكن أن تكون له علاقة بذلك الاضطراب الملاحظ في مستوى الهوية، الذي كنت أحدثك عنه منذ لحظة. كما أنني على يقين أيضاً، من أن

"منعاً أو استبعاداً" من هذا القبيل يمكن أن يترك أثراً في عملية انتماء اللغة أو عدم انتمائها، في عملية الانتساب إلى اللغة، وفي الميل إلى ما ندعوه بكل بساطة: اللغة.

لكن المعضلة القائمة هنا هي ذات شقين: من يمتلك فعلاً هذه اللغة من جهة، ومن تمتلكه هذه اللغة من جهة ثانية؟ ثم هل اللغة هي فعلاً قابلة للتملك أو الحيازة، ومن ثمة هل هي تملك أو حيازة متملِّكة possédante أم متملَّكة possédée؟ هل هي متملَّكة أم متملِّكة بالمعنى الحقيقي شأنها في ذلك شأن أية ملكية خاصة أخرى؟ مهما يكن، فإن البحث عن ماهيتنا داخل اللغة ستبقى مسألة عود أبدي.

وكما بيّنت ذلك سالفاً، فإن نزع المواطنة استمر لمدة سنتين متتاليتين، علماً أن هذه العلمية لم تتم بالمعنى الدقيق stricto sensu كما يشاع "تحت الاحتلال". لقد كانت عملية فرنسية بحتة، بل قد تأخذنا الجرأة ونقول إنها فعل من أفعال الجزائر الفرنسية، طبعاً في غياب أي احتلال ألماني لها، فنحن في الجزائر لم يسبق لنا أبداً أن رأينا زيّاً عسكرياً ألمانيا، وعليه ما من عذر، أو نفي، أو وهم، في مقدوره تحميل المحتل الأجنبي مسؤولية ما جرى. وباختصار يمكن القول أننا كنا رهائن بيد الفرنسيين، ذلك أنه، وبالرغم من أسفاري الكثيرة، ومعارفي المتعددة، فإنني لم أعثر في تاريخ الأمم - الدول على أمثلة توازي ما حصل لعشرات الآلاف من الأشخاص جرّدوا على حين غرة من مواطنتهم مرة واحدة. ففي أكتوبر 1940 قامت فرنسا ذاتها، دولة فرنسا في الجزائر، "الدولة الفرنسية" المؤسسة بطريقة شرعية (عن طريق المجلس الذي شكلته الجبهة الشعبية) بإلغاء مرسوم كريميو Crémieux المؤرخ في 24 أكتوبر 1870، ومن

ثمة المصادقة عليه برلمانياً. إذن في الوقت الذي قامت فيه هذه الدولة برفض الهوية الفرنسية لعشرات الآلف الذين ذكرتهم سابقاً، قامت بإسباغها، على النقيض من ذلك، على أولئك الذين ما زالت الذاكرة الجماعية تتذكر، أو أنها لم تنس بعد بشكل كامل، بأنها أعطيت لهم لغرض معيّن، وبأنه تبع ذلك، وفي أقل من نصف قرن (أي سنة 1898) تصفيات دامية وبدايات لما يسمى ذبح اليهود pogroms.

مع ذلك، فإن هذا لا يمنع من إقامة "مقارنة" لا سابق لها: عميقة، سريعة، متحمسة، مشهدية (أو احتفالية) بين جيلين كاملين كان قاسمهم المشترك المعاناة.

ثم إننا لنتساءل: هل إن هذا "الاضطراب الحاصل في مستوى الهوية" هو عامل تحفيز أم عامل كبح للمرض المستشري؟ هل يقوم بشحذ رغبات الذاكرة أم يعمل على بعث اليأس داخل الاستيهام الجنيالوجي؟ هل يؤدي إلى القمع، الكبت أم التحرر؟ هذه دون شك رواية أخرى للتاريخ، ووجه آخر للتناقض الذي يجعلنا دائما في حركة دؤوبة، والذي يجعلنا نفتقد نكهة كل شيء بدل أن نفقد عقلنا في النهاية.

- 4 -

لنحتفظ بهذا العنوان **أحادية الآخر اللغوية** ولنحاول تشكيل صورة، صورة هي أبعد ما تكون عني أنا ذاتي، وأيضاً عن ذلك النوع المسمى السيرة - الذاتية التي تبدو دائماً في شكلها الصارم كلما دخلنا، أو تعرضنا لمجال **العلاقة**، فما هي "العلاقة" التي نقصدها يا ترى؟. إننا ننظر إلى العلاقة هنا بمعنى السرد (أو الحكي) كما هي الحال مثلا بالنسبة للسرد الجنيالوجي، لكن، وبصورة أعم، نحن نقصد المعنى الذي أسبغه ادوارد(*) غليسون Edouard Glissant على هذا المصطلح في معرض حديثه عن **شعرية العلاقة** *poétique de la relation*، في الوقت ذاته الذي يمكننا الحديث فيه عما يمكن أن نسميه سياسة العلاقة.

تأسيساً على ما سبق، سألبس ثوب الجرأة وأقدم نفسي لك

(*) ادوارد غليسون: Glissant (1928) (Edouar). كاتب من المارتنيك Martinique، يعد من أهم الكتاب في بلده وفي العالم أيضاً، عرف بمواقفه التحررية والإنسانية أهمها وقوفه إلى جانب المثقفين الجزائريين في نضالهم ضد الاستعمار الفرنسي. تنوعت إنتاجاته بين الأجناس الأدبية المختلفة من قصة، ورواية، وشعر ومسرح. حصل على العديد من الجوائز الأدبية والثقافية في مختلف أصقاع العالم. من أهم مؤلفاته:

مقال الانتيل le discours antillais **(1981)** (دراسة)

مذكرات العبيد mémoires des esclaves **(2007)** (دراسة)

الملح الأسود Sel noir **(1960)** (شعر)

القرن الرابع le quatriéme Siécle **(1997)** (رواية)

(المترجم)

أنت بما أنني **ذلك الإنسان الذي**، ولسخرية القدر، يعرّف بما هو الفرانكو - مغاربي النموذجي، لكنه فرانكو - مغاربي أعزل، يتميّز بنبرة أكثر سذاجة، وأقل تحفظاً، وأقل دماثة. أقول **ذلك الإنسان** لأن الأمر هنا يتعلق بمجال هو أقرب ما يكون إلى مجال الأهواء والعواطف، نعم فهذا الأمر لا ينبغي أن يكون محل تهكم لديكم، فهذا الذي يمكن أن ننعته بشهيد الفرانكو - مغاربية، نجد أنه، ومنذ مولده على الضفة الأخرى للمتوسط، لم يختر شيئاً، بل إنه لم يفهم شيئاً مما يدور حوله ما شكّل ألماً مستديماً في باطنه.

أما فيما يخص هذه القيمة الغامضة المتعلقة بتلك المصدقة، إن لم نقل بتلك الأنموذجية التي قدم الاعتراف وفقها، فإنه يطفو إلى السطح التساؤل الأولي التالي - تساؤل هو الأعم دون أدنى شك - : ما الذي سيجري عندما يقوم أحدهم بوصف "وضع" معين يتميّز بالتفرد والخصوصية، كما هي الحال بالنسبة لوضعي أنا مثلا، أي أن يقوم بوصف هذا الوضع بتعابير تتجاوزه، أو عبر استخدامه للغة تأخذ في نهاية المطاف قيمة بنيوية شمولية، ترنسندنتالية أو أنطولوجية. فإذا ما قال احدهم "إن ما ينطبق عليّ ينطبق أيضاً على الجميع، فعملية الإنابة في طريقها إلى التحقق، بل إنها قد بدأت بالفعل، فكل واحد يمكنه أن يتكلم، عن ذاته وعن الآخر، الشيء ذاته، يكفي أن تستمعوا إليَّ، أنا، الرهينة الكوني"؟

ونحن نقرأ ما سبق، نتساءل: كيف يمكننا وصفه؟ كيف يمكننا تعيين ما وقع عليّ، على أنه لا يمكن أن يقع إلا مرة واحدة؟ كيف يمكننا تحديد تلك الواقعة المفردة التي لا يمكنها ضمان وحدتها إلا عبر الإقرار الذي تحدثنا عنه، ذلك أن بعض الأفراد، وفي حالات

معيّنة، يقومون بتثبيت الملامح الأساسية لبنية شمولية معيّنة، وذلك من خلال الكشف عنها، وتعيينها، ودفعها لإخراج ما لديها بطريقة "حية قوية"، وبخاصة إذا ما تعلق الأمر باستذكار جرح قديم غائر. ثم إن الطريقة القوية هي أحسن أنواع الطرق المتوفرة الممكنة لجهة أنه إذا ما أدخلت عليها عناصر غريبة، يمكن أن تتحول هي بدورها إلى مثال شمولي، مثال يتقاطع ويشمل في الوقت ذاته كلا المنطقين القائمين: منطق الأنموذجية ومنطق الضيف - الرهينة.

على أنه ليس هذا هو أكثر ما يثير دهشتي، ذلك أننا في الواقع لا يمكن أن نأتي في شهادتنا إلا بما هو عجيب غريب، بمعنى آخر إلا بما يمكننا الاعتقاد فيه والنظر إليه، إذ، وبعد مرور مرحلة الاختبار، والتعيين، والمعاينة والمعرفة، لا يبقى أمامنا إلا اللجوء إلى الاعتقاد، أي إلى الكلمة الوعد. مفاد ذلك أنه، وبمجرد طلبنا للاعتقاد في هذه الكلمة الوعد نكون، شئنا ذلك أم أبينا، عرفنا ذلك أم لم نعرف، قد انضوينا تحت ستار ما هو قابل للاعتقاد فقط. فوق هذا وذاك، الأمر هنا دائما يخص ما هو متاح أمام الإيمان، أي ما هو قابل للاعتقاد، ومن ثمة يخص كل ما هو عجيب أكثر من المعجزة ذاتها، فالعجيب عجيب فقط لأنه يتميّز بالمصداقية. ونظام الإقرار يشهد هو ذاته بهذه المعجزة، أي ذلك القابل للاعتقاد العجيب، أي ما ينبغي أن نعتقد فيه سواء أكان قابلاً للاعتقاد أم لا. هذه هي الحقيقة التي أدعو إليها، والتي ينبغي أن تؤمنوا بها، حتى وإن بدا أني أمارس الكذب أو الحنث باليمين، هذه الحقيقة إذن تفترض الصدق حتى في مجال الإقرار الكاذب وليس العكس.

نعم، إن ما يضيف إلى هذا العجب عجباً جديداً، هو أن

أفراداً من هذا القبيل يمارسون الإقرار بلغة هي اللغة ذاتها التي يتكلمونها، ومن ثمة اللغة التي تواضعوا على الحديث بها بطريقة معيّنة، وإلى حد معيّن...

-... بطريقة معيّنة وإلى حد معيّن كما جرت العادة في كل ممارسة تخص اللغة...

-... لكن أن يتكلموها هم، ثم يقدموها **بهذه اللغة ذاتها بما هي لغة الآخر**، هذا هو الاختبار الصعب الذي يواجهني أنا ذاتي هنا في هذا اللقاء، أنا المتكلم باللغة الفرنسية، خاصة وأن الإشكال كان سيكون أقل حدة لو تحدثنا نحن الأغراب باللغة الانجليزية.

ولتبسيط ذلك سأقدم هذا المثال: منذ قليل كنت قد ذكرت "إن لدي لغة واحدة، ومع ذلك فهي ليست لغتي" أو "لا يمكننا أن نتكلم أبداً إلا لغة واحدة" وكمحصلة لذلك أتبعتها بما يلي: "إذن ليس هناك ازدواجية لغوية أو تعددية لغوية"، بل ودفعا بهذه المتناقضات إلى مداها قلت "لا يمكننا أن نتكلم أبداً لغة واحدة" وهذا مؤداه "أن ليس هناك إلا التعددية اللغوية".

وهكذا نجد مجموعة من الأقوال تبدو متناقضة ظاهريا (لا يوجد س، لا يوجد إلا س) ومجموعة أخرى من المزاعم أعتقد أنه كان في مقدوري، لو أعطيت لي فرصة كافية، أن أبيّن قيمتها الشمولية، فكل منا في حقيقة الأمر يمكنه قول "إنه ليس لدي إلا لغة واحدة (إلا أنه، لكن، من الآن فصاعداً، بصفة نهائية) مع ذلك فهي ليست لغتي".

إن بنية مباطنة من الوعود (العهود) والرغبات، وانتظاراً دون أفق رجاء يشوه كل كلمة ممكنة، إذ ما إن أبدأ بالحديث، وحتى قبل

أن أباشر صياغة وعد معيّن، أو أن أحيل إلى انتظار أو رغبةً كما يظهران دونما زيادة أو نقصان، وحيث لا يمكنني أيضاً أن أعرف ماذا سيحدث لي، أو ما الذي ينتظرني في نهاية جملة ما، ولا من ينتظر من أو ينتظر ماذا، حتى أجد نفسي وقد تجلت في ذلك الوعد أو في ذلك التهديد الذي صار يشبه اللغة، اللغة الموعودة أو المهددة، اللغة الواعدة حتى درجة التهديد والعكس صحيح، ومن ثمة اللغة التي يصير تشتيتها ذاته عنوان لم شملها أو تجميعها. من هنا فإننا نجد أن الأشخاص الذين يتقنون لغات عدة يميلون عادة إلى التحدث بلغة واحدة حتى وإن كانت هذه الأخيرة مجزأة، فلجهة أنها لا تستطيع إلا أن تقدم وعوداً للآخر ولذاتها على حد سواء، غير التهديد بلجوئها للتجزيئي والتقطيع، فإن لغة معيّنة لا يمكنها إلا أن تتحدث هي ذاتها عن ذاتها، إذ لا يمكننا أن نتحدث عن لغة ما إلا بلغة هذه اللغة ذاتها، حتى عندما نود التخلص منها.

وبعيداً عن أن نكون قد أوصدنا أي باب من أبواب النقاش القائم، فإننا نلاحظ بأن هذه الأنانة تتحكم في عملية الالتقاء أو التواصل مع الآخر. إنها هي من يقوم بتقديم الكلمة العهد، أو بالأحرى أنها هي من يقدم إمكانية تقديم الكلمة العهد، بل إنها هي من يعطي الكلمة العهد لجهة اختبار ذلك الوعد المهدَّد والمهدِّد(*): سواء تعلق الأمر بالأحادية اللغوية وبالحشو، أو باستحالة قيام لغة

(*) يبدو أن ما يمكن صياغته من الوعد بما هو تهديد قد يكون. إن لم يكن فعلاً. على قدر كبير من الغموض والأشكلة، لذا أرجو أن يسمح لي، بأن أحيل فيما يخص هذه المسألة، على محاجة أكثر تماسكاً وأكثر اقناعاً كما أتمنى، وذلك في "تسبيقات" "Avances"، وهي بمثابة المقدمة لكتاب سرج ما رجيل: **لحد الإله الصّانع** *Serge Margel: Le Tombeau du dieu artisan, minuit, 1995*.

واصفة Métalangage. وبمعنى آخر استحالة قيام لغة واصفة مطلقة على الأقل في ذلك المستوى الذي توجد فيه مؤثرات تتمفصل حولها، أي مؤثرات أو ظواهر نسبية عمادها اللغة الواصفة تعمل "في" لغة معيّنة على إدخال عناصر أخرى كالترجمة والموضوعية المنشودة، ما يترك في ذلك الأفق المرئي والعجائبي المشبع بألوان الطيف والمرغوب فيه، سراب قيام لغة أخرى.

إن ما أجد صعوبة بالغة في فهمه لحد الساعة، هو ذلك الجهاز المفاهيمي الكبير الخاص بالتملك، بالعادة، وبحيازة لغة ليست هي لغتك أو لغتي على سبيل المثال، كما لو أن الضمير والنعت الدال على التملك في مستوى اللغة يصبحان من المحظورات لدى هذه اللغة ذاتها.

أما في المستوى الذي يعنى بمن يتكلم هذه اللغة أو بمن يكتبها، فإن تجربة الأنانة أحادية اللغة هذه لا تبين إطلاقاً عن أي انتماء أو تملك أو سلطة إخضاع أو "ذاتية" محضة من أي نوع كانت (بمعنى الضيافة أو بمعنى العدوانية). وإذا كان ما تحدث عنه إدوارد غليسون من أن عدم إتقان لغة مناسبة معيّنة يعبّر في المقام الأول عن حالات الاغتراب "الكولونيالي" (الاستعماري) "Aliénation" "coloniale"، أو العبودية الملاحظة عبر التاريخ، فإن هذا التعريف يهدف هو أيضاً، وبخاصة إذا تم إدخال التغييرات اللازمة، إلى ما يتجاوز هذه الشروط المحددة، كما أنه، أي التعريف، ينطبق أيضاً على ما يمكننا تسميته لغة السيد، لغة الـ*hopes* أو "الكولون" (المستوطن) *colon*.

على أنه، وبعيداً عن أن يكون هدفنا تعويم الخصوصية،

النسبية دائما، والمتعلقة بحالات الاضطهاد اللغوي أو الاستملاك الكولونيالي (الاستعماري) مهما بلغت فظاعتها، فإننا نجد أن هذا التوجّه نحو التعميم الحذر والمختلف ينبغي أن يضع في حسبانه، بما أنني أجزم أنه هو الوحيد الذي يمكنه القيام بذلك، الإمكانية المحدّدة لعبودية أو لهيمنة معيّنة،حتى لو حدا الأمر بهذه الإمكانية إلى تحديد القوة الكامنة داخل اللغات (صحيح هناك لغات ناعمة، خفية أو بائنة، إلا أن موضوعنا يتعلق بالقوة الكامنة داخل اللغات).

ذلك، وعكس ما نعتقد في أغلب الأحيان، فإن السيد هنا لا يمثل شيئاً خاصاً به هو، ولأنه لا يملك شيئاً خاصاً به، فإن أول ما يتبادر إلى أذهاننا على أنه لا يملكه هو لغته التي يعتقد أنها لغته الخاصة، فهو، ومهما فكر أو فعل، فإنه لن يكون في مقدوره أن يقيم معها علاقات ملكية أو احتياز، أو علاقات تخص الهوية الطبيعية: كالعلاقات القومية الوراثية، الانطولوجية لسبب بسيط وهو أنه لا يستطيع تأكيد أو ذكر هذا الذي تملّكه إلا داخل إطار مسار غير طبيعي يضم هياكل سياسية - استبهامية عجيبة: فاللغة ليست ملكاً طبيعياً له، بل إنه يمكنه من الناحية التاريخية، أن يقوم باغتصاب هوية ثقافية - طبعاً بالمعنى الكولونيالي (الاستعماري) - ليعمد بعد ذلك إلى فرضها وكأنها "شيء يخصه". وهنا مكمن ما يعتقد، والذي يود أن يفرضه على الآخرين بالقوة حيناً وبالمكر والحيلة أحياناً أخرى، إنه يريد منهم أن يؤمنوا بما يريده إيمانهم بالمعجزات، بالبلاغة، بالمدرسة أو بالجيش. إذ يكفي، ومهما تكن الوسيلة المتبعة لبلوغ ذلك، أن نستمع إليه، أن نتركه يتكلم على رسله وفق قاعدة أفعال الكلام *Speech act*، وأن نترك له أيضاً

إمكانية خلق الشروط الخاصة بذلك حتى يصبح "سعيداً"، ما يعني بلغة أخرى أن يصبح فعالاً، منتجاً، ماهراً، مولداً للظواهر المتوقعة أو المأمولة، لكنه أحيانا قد يكون كل ذلك إلا أن يكون "سعيداً" "*félicitous*"، هنا سنتخطى عتبة **الدور الأول**، أو على الأقل سنقلب الصفحة الأولى من هذا الدور.

أما الدور الثاني فعنوانه التحرير، الانعتاق، الثورة، إذ سيجتاز الأول وهو محمل بإرث ما فتئ يبذل قصارى جهده لتمثله، ومن ثمة إعادة تملّكه - لكن لفترة وجيزة فقط، وذلك مصداقا لفرضيتي القائلة بأن لا وجود لتملك أو إعادة تملك مطلق، لأنه وببساطة، لا توجد ملكية طبيعية خاصة باللغة، وإن وجدت فهي لن تكون إلا مجالاً خصباً لحب التملك والغيرة. مع ذلك فنحن نجد أن اللغة ذاتها تنطق باسم هذه الغيرة، بل إنها ما هي إلا هذه الغيرة، وقد أفلتت من عقالها، فهي تأخذ بثأرها وفق مقتضيات القانون، هذا القانون الذي يرى أن اللغة مجنونة، مجنونة بذاتها، مجنونة وموثوقة يتوجب عليها أن تصمت.

(وبما أن الأمر طبيعي هنا، وبما أنه لا يستوجب تطورات كبيرة أخرى، فإنه ما من خير في أن نذكر، ولو بكلمة واحدة، بأن التملك السابق للغة، وتحديداً "لميزتها" الخاصة، يفضي إلى سياسة معيّنة، إلى حق وإلى ايتيقا أيضاً. بل إننا لنتجرأ أو نذكر أنه هو الوحيد الذي بإمكانه فعل ذلك، مهما تكن المخاطر، لأن الملتبِس الذي لا يمكن اتخاذ قرار بشأنه indécidable بدوره، وبما أنه عرضة للمخاطر، فهو يدعو إلى اتخاذ قرار ما هناك قبل البث في أي برنامج كان أو أية بديهية كانت، قرار يهدف إلى تكييف القانون

وكذا بحث حدود أي حق يتعلق بالملكية، أو حق القيام بواجب الضيافة، أو الحق في أن أكون أنا ذاتي أو في أن أكون متميّزاً بعامة، مع "سلطة" "*hospes*" ذاتها، سيداً كان أم مالكا وبخاصة إذا كان مالكاً لذاته بحسب *despotes, potior,, possider, épissimus,* *pse, compos,* حتى لا أذكر إلا هذه المقاطع، وبطريقة غير منتظمة، من السلسلة التي شكلها بنفست(*) Benveniste، والتي كنت قد تحدثت عنها من قبل).

إذا كنا نعلم أن "الكولونيالية" (النزعة الاستعمارية) و"الاستعمار" ليسا إلا نتوءات بارزة، ورضوضاً فوق رضوض، ومزايدة موضوعها العنف، واستشاطة من توجه كولونيالي أساسي للثقافة كما يستشف من الاسمين معاً في آن واحد. ذلك أن قولنا بـ coloniabilité الثقافة - أي التوجه الكولونيالي للثقافة - يعني بداهة أيضاً القول بالضيافة، وبخاصة متى قامت بالتكيّف وبإلزام ذاتها بذاتها بقانون معيّن مهما بلغت "غرابته" _ تماماً كما كان يريده

(*) إميل بنفست: Benveniste: (1976 . (Emile) (1902
ألسني فرنسي شهير، يعد أحد الأعمدة الأساسية للألسنية الفرنسية والألسنية المعاصرة بعامة. يميّز بنفنست بين نسقين من المنطوقات يتموضع أحدهما داخل التاريخ، ويتموضع الثاني داخل المقال، الأول عام والثاني خاص. اشتهر بنفنست بمصطلحه "اعتباطية العلامة" الألسنية "Arbitraire du signe linguistique"، والتي مفادها أن لا علاقة منطقية بين الدال والمدلول كما كان يعتقد دوسوسير De Saussure. من أهم مؤلفاته:

1 - **مسائل في الألسنية العامة** في جزئين *problèmes de linguistique générale* (Deux Tomes).

2 - **معجم المؤسسات الهندو-أوروبية** في جزأين *Le Vocabulaire des institutions indo-europénnes*, Deux Tomes (1969).

(المترجم)

كانط **مشروع السلام الدائم** حيث الانتقال من القانون الكوني إلى الضيافة.

تأسيساً على ما سبق، فإنه سيصبح في مقدور أي كان أن يصرح تحت القسم: لا أملك إلا لغة واحدة، ومع ذلك فهي ليست لغتي، فلغتي "الخاصة" هي لغة لم ترق بعد إلى مستوى اللغة التي يمكن تمثلها، ولغتي، أي اللغة الوحيدة التي أنوي التحدث، ومن ثمة التفاهم بها، هي في الواقع لغة الآخر.

هذا "الاغتراب"، مثله في ذلك مثل الانعدام والنقصان، يبدو مؤسساً بطريقة ثابتة، مع ذلك فليس بنقصان ولا اغتراب، فهو لا ينقصه شيء مما سبقه ولا شيءٌ مما لحقه، وهو لم يحمل أية هوية على الاغتراب، ولا أية ملكية كذلك، ولا أية ذات، حيث لم يسبق لها أن كانت محل انهمامه يوماً. وبالرغم من أن هذا الأمر يرغمه على التقيد بمكان معيّن(*)، فإنه ما من شيء هنا يقوم بالسهر لا على ماضيه ولا على مستقبله. فبنية الاغتراب هذه التي لا تحوي اغتراباً، وهذا الاغتراب غير القابل للتصرف فيه لا يشكل لوحده مصدر مسؤوليتنا، بل إنه سيهيكل خصوصية اللغة، ومن ثمة ملكيتنا لها. إنه يؤسس لتلك الظاهرة التي محورها التفاهم حول اللغة أو كلام معين لإمكان قيام إرادة للقول (أو إرادة قول) Vouloir-dire، مع ضرورة التنويه بأنه ينبغي النظر إلى هذه الظاهرة بما هي ظاهرة استبهامية غريبة. لكن لنعد الآن إلى تلك القرابة

(*) لاستجلاء هذا الاستخدام المتميّز بالإلحاح، لمصطلح اللسان المرتبط بالمكان، بما هو مسكن، فإننا سنحيل إلى "Demeure " من كتاب: **انفعالات الأدب** *Les passions de la littérature*. Galilée. 1996.

الدلالية والإيتيمولوجية (الاشتقاقية) التي تربط *phantasme* بـ *plainesthai*، بظاهرانية الظاهرة وبطيفها أيضاً. إن *phantasma* تعني، من بين ما تعني، الشبح Fantôme، وتعني أيضاً المزدوج (المخادع) أو العائد، وعلى كل هذا هو الوضع كما هو، ولم يبق لنا إلا أن نباشر القراءة والفهم حسب الأصول لنباشر الكلام بعد ذلك. هنا، أو هناك لا يهم، فمن يستطيع يا ترى أن يقنعنا بعكس ذلك، ومن ثمة من يستطيع أن يدعي إثبات أننا مستغرقين داخل نسقية عنصر ما، حيث لا يمكن اختزال غرائبية طيفية بأي حال من الأحوال، وحيث لم يتم التحقق من واقعة الذعر السياسي والتاريخي السائد، بل إن العكس هو الصحيح. ذلك أن هناك أوضاعاً، وتجارب، ومواضيع هي ذاتها توجد في وضع مناسب (لكن في هذه الحالة يمكننا أن نتساءل ما معنى الفعل موضع Situer هنا؟) يسمح لها بأن تقدم شهادتها (أو إقرارها) بطريقة أنموذجية. هذه الأنموذجية لا تختزل لما هو أبسط منها كأن تكون مثالا في سلسلة معيّنة، إلا أنه سيكون من الأفيد لو أن هذه الأنموذجية - الرائعة والمميّزة - التي تغري بقراءة لامعة خاطفة، تقوم بتكثيف، إن لم نقل، بصدم الحقيقة المتعلقة بضرورة كونية أو شمولية، فالبنية تنجلي عبر تجربة الجرح، والإساءة، والانتقام، والغبن، وبخاصة عبر تجربة الذعر.

هذا الحدث مازال ينتصب جرحاً غائراً حيث الضربات، والجروح، والندبات، بل حيث القتل أحياناً، حتى ليمكننا القول أن هناك اغتيالات جماعية. هذا هو الواقع بكل قساوته، وبميله إلى حمل كل إحالة Férance، كل مرجعية Référance على أنها اختلاف

مؤجل أو مرجأ Différance[*] .

إذن ما هو الإطار الذي يمكن أن نخصصه لهذه الأنموذجية في مستوى الملاحظة - المتقطعة Re -marque؟ وكيف نؤوّل تاريخ مثال يسمح بإعادة النقش أو إعادة الكتابة ré- inscrire- حتى ولو تطلب الأمر أن يكون ذلك على جسد يتميّز بفردانية لا يمكن استبدالها - وذلك لجهة منحها إمكانية ملاحظة البنية الكلية لقانون معيّن.

إن المشكلة العويصة التي تعترضنا هنا هي أننا لا نملك إمكانية معالجة القضايا الكلاسيّة، هذا في الوقت الذي ينبغي أن نشير فيه، ولكن من داخل الهاوية Abîme، بأن هناك فرضية ما انفكت تعمل على تعقيد ما هو معقد أصلاً، أو على طيّه أو ثنية عبر استخدامه للثنية داخل التشتيت بما هو بعثرة. Engager le pli dans la dissémination **comme** dissémination ذلك أنه، وعلى النقيض مما نعتقد عادة، ينبغي أن ننظر إلى فكر التشتيت على أنه فكر مجاله الواحد وليس المتعدد، فكر ظهر وكأنه يقوم بتبني الثنية - ومثني

(*) يميّز دريدا في مجمل مؤلفاته بين نوعين من الاختلاف: الاختلاف بالرسم الفرنسي Différence، وهو اختلاف يعبّر عن حقيقة فكرية ناقدة لكل الميراث الميتافيزيقي الغربي بما هو مرتع خصب لكل أنواع الأحادية والمطابقة ورفض الآخر، وهو ما لخصه في مصطلحه " ميتافيزيقا الحضور ". وبين الاختلاف بالرسم الفرنسي غير الشائع Différance، ويقصد به المعنى غير البائن، غير المتجسد بعد، غير المتفق عليه، المعنى الذي لم ينبجس بعد من بين صفحات الكتب، ولا من ثنايا التاريخ المدلهمة، لذا ستصبح مهمة التفكيك الأساسية استظهار هذا المعنى الغائب.

(المترجم)

حولها أيضاً-[*]. فهناك الثنية الخاصة بالملاحظة - المتقطعة، وهناك الرد أو إعادة إدماج لشبه الترنسندنتالي أو شبه الانطولوجي داخل المثال الظاهراني أو التجريبي، وحتى داخل *Phantasme* ذاتها، حيث نجد أنفسنا ملزمين- هناك حيث كان يفترض أن يترك أثراً Trace داخل اللغة - على قول "لا يمكننا أبداً أن نتكلم إلا لغة واحدة" وفي الوقت ذاته نقول "لا يمكننا أن نتكلم أبداً لغة واحدة فقط" أو "لا أتكلم إلا لغة واحدة (و لكنها، بيد أنها) ليست لغتي".

والواقع أن تجربة اللغة (أو بالأحرى لنقل تجربة السمة Marque، الملاحظة - المتقطعة التي تأخذ طابع الثنية، أو الهامش Marge) هي بالفعل ما يجعل هذا **التمفصل** ممكناً وضرورياً. أليست هي من يسر هذا التمفصل بين الكليانية الترنسندنتالية أو الانطولوجية والفردانية الأنموذجية أو الشاهدة على هذه الكينونة **الشهيدة**. إننا ونحن نشير إلى مفهومي السمة والملاحظة - المتقطعة، لم يغب عن ذهننا أن نفكر فيما يمكن أن تتركه من ندوب، فثمن الذعر (والترهيب) هو تلك الجروح التي تسجل على ثنايا الجسد، طبعاً نحن نتحدث هنا عن الشهادة Martyre، وعن الألم بالمعنى الصارم وشبه الايتيمولوجي (الاشتقاقي) لهذين المصطلحين: فعند ما نتحدث مثلاً عن الجسد، فإننا نعني بذلك جسد اللغة والكتابة في الوقت ذاته، بما أن الكتابة هي فعل جسدي في النهاية. إذن فنحن

(*) لمزيد من الأيضاح حول التشتيت، بما هو تجربة محورها الوحدانية، وحول التشتيت بما هو ثنية، أو ثنية حول الثنية، يرجى مراجعة كتابنا:

La dissémination, Seuil, 1972, P. 50, 259, 283, 291, Sq. et passim.

ندعو، وبسرعة، إلى يقين ذلك الجسد الخاص الذي يبدو متأثراً بالتملك السابق ذاته، وبالاغتراب ذاته دون اغتراب، ودون ملكية بما أنها فُقدت إلى الأبد، أو في طريقها لأن يعاد تخصيصها إلى الأبد.

إنك لن تسمع هذه الكلمة في لغتنا أبداً، ولن تجد كلمة "دون"، حيث أنك ودون أن تفهم، ستسمع! من هنا، ومن الآن فصاعداً، هذا هو ما ينبغي إخراجه إلى الواجهة دون رتوش. على أن السؤال الذي يبقى مطروحاً هنا: هل يمكن لآلام شهيد فرانكو - مغاربي أن تشهد على هذا القدر الشمولي الذي ينسبنا للغة واحدة، مع أنه، وفي الجهة المقابلة، يمنعنا من تملكها، علماً أن هذا المنع يمس صميم اللغة ذاتها، أو بالأحرى الكتابة، وكذلك السمة، الثنية والملاحظة - المتقطعة.

- 5 -

هذه إذن طريقة مجردة إلى حد كبير في سرد حكاية معيّنة، هذه الخرافة Fable التي تسميها، وأنت تقطر غيرة، حكايتك، والتي هي في الواقع لا تعدو أن تكون حكايتي أنا.

إن السيرة الذاتية تفترض المطابقة identification بحسب المفهوم المتداول، وغني عن القول أن الأمر هنا يخص identité بمعنى الهوية. فالهوية، فيما نعتقد، لا توجد هكذا بشكل معطى، أو أنها تمنح، أو تؤخذ كيفما اتفق، لا؛ فما يبقى في النهاية هو ذلك المسار اللامنتهي المطبوع بعجائبية بالغة، والخاص بعملية المطابقة. من هنا فإنه، ومهما تكن حكاية الرجوع إلى الذات أو إلى المستقر (أو المسكن) chez soi، أي في خص المستقر (فالمسكن هنا يعني الخص)، ومهما تكن درجة الملحمية، أو *Bildungesroman*، وكيفما كانت الطريقة التي حبكت وفقها المؤسسة المتعلقة بالذات، بالآخر، وبالهو، فإننا لن نعدم الوصول إلى ذلك التصور الذي مؤداه أن من يمارس الكتابة ينبغي عليه بداية أن يعرف كيف يقول أنا Je. وعلى كل، **فإن الكيفية الخاصة بالمطابقة** ينبغي أن تكون، ومن الآن فصاعداً، مؤمّنة: مؤمّنة تجاه اللغة وفي اللغة. وهنا ينبغي التفكير جدياً في كيفية إيجاد حل لمشكلة وحدة اللغة، ومن ثمة تحديد "واحد" Un أو (التوجه الواحدي) أو بالأحرى "وحدة" اللغة، إما بالمعنى الصارم للكلمة أو بالمعنى الفضفاض لها - معنى فضفاض سنعمل على "تمطيطه" إلى أن يتم فهم كل النماذج وكل

كيفيات المطابقة، وكل أقطاب الاسقاطات الوهمية للثقافة الاجتماعية. فكل منطقة توجد ممثلة شكلانياً هنا: السياسة، الدين، الفنون، الآداب، علماً أن الأدب مأخوذ هنا في معناه الفضفاض (الحديث).

بادئ ذي بدء ينبغي أن نعرف بأية لغة تنطق أنا، أو أنطق أنا، فعندما تذكر الأنا يذهب بنا تفكيرنا مباشرة إلى أنا أفكر Je pense، أي الأنا المتمحور حول الفكر وليس إلى أنا نحوي أو لغوي، يذهب إلى ذاتي أنا Moi أو إلى النحن Nous، وهما في وضع المطابقة وفق ما تصورتهم الوجوه الثقافية للرمزية السوسيو - ثقافية، فإذا ما قلبنا الأمر على أوجهه المختلفة: النحوية، المنطقية، الفلسفية، فإننا سنصل إلى أن الأنا المتعلق بتلك الظاهرة التي يطلق عليها السيرة الذاتية، أو الأنا المتماهي مع ذاتي Je - me المتضمن مثلاً في الصيغة: "لقد تذكرت"، إنما تكون وتزدهر بطرق متباينة بحسب تباين اللغات ذاتها، فهو لا يسبقها أبداً، وليس مستقلاً عن اللغة في مجمل الأحوال.

هذه المسألة، في الحقيقة، معلومة لدى الجميع، لكنها نادراً ما وضعت في الحسبان عند أولئك الذين عالجوا السيرة الذاتية - سواءً عد هذا النوع نوعاً أدبياً أم لا، بل سواء عد نوعاً من الأساس أم لا.

بيد أنه، ودون أن نغوص في الأعماق السحيقة للأشياء، فإنه ربما يتوجب علينا أن نضع بعين الاعتبار محصلة واحدة على الأقل، وهي تخص ذلك الذي جعل من مكان هذا الملتقى حيّزاً مشتركاً بيننا، حيث بدا ذلك واضحاً في منطوق عنوان الملتقى ذاته

وهو: الهناء (أو المكان الآخر) *Ailleurs* والإحالة (أو الإرجاع) renvoi، على افتراض أن لن تكون هناك إمكانية مستقبلية لتعيين مكان مشترك. إن الأنا المقصود هنا كان قد تشكل فعلاً وبخاصة عندما نعلم أن الاضطراب الحاصل في مستوى الهوية الذي نحن بصدد الحديث عنه لا يؤثر بطريقة جدية في عملية تكوّن الأنا، تشكل القول الإني أو (القول المتمحور حول الأنا) *Dire - Je*، وتشكل الأنا - إنية *Moi - Je*، أو ظهور هوية ما قبل أنانوية والنظر إليها بما هي كذلك. وعليه فإننا نجد أن هذا الأنا قد تم تشكيله بغرض النظر في تلك **الحالة** التي لا وجود لها، والتي دأبت دائماً على أن تحيل إلى ما هو هناك في مكان آخر، أن تحيل إلى شيء آخر، إلى لغة أخرى وإلى الآخر بعامة.

لقد تمت موضعة هذا الأنا داخل تجربة اللغة - اللغة بالمعنى الفضفاض للكلمة - غير قابلة للتموضع. هذه التجربة لم تكن لا أحادية اللغة، ولا مزدوجة اللغة، ولا متعددة اللغات، إنها لم تكن لا واحدة، ولا اثنتان، ولا اثنتان + ن. وعلى كل، لم يكن هناك أنا مفكر فيه، أو مفكر به ببساطة قبل قيام هذه الحالة الغريبة إلى حد المألوف وغير المتلائمة على نحو ملائم (*Uncanny,* *Unheimlich*) للغة من المتعذر الإمساك بها أو حصرها.

إن ما أود الإشارة إليه هنا هو أنه من المستحيل حصر اللغات، إذ من المتعذر قيام عملية حسابية بذلك ما دام أن التوجه الواحدي في لغة معيّنة، والذي يستعصى على أية محاسبة، لم يحدد في يوم من الأيام. فواحد اللغة الأحادية الذي أتحدث عنه، والذي تحدثت عنه لن يكون في مطلق الأحوال هوية حسابية، بل ولا حتى مجرد

هوية أساساً. من هنا فإن اللغة الأحادية تبقى من المتعذر حسابها، على الأقل في هذا المستوى. لكن أن تبدو هذه اللغات في وضع يصير معه من المتعذر إثباتها أو البرهنة عليها، فهذا لا يدفع عنها خطر الانقراض، وبالفعل فهناك المئات منها قد اضمحلت خلال هذا القرن، وكل يوم، ومع رحلة الفقدان هذه، تفتح سلة التساؤلات حول ضرورة توفر إنقاذ أو **خلاص** لها.

وحتى لا نستسلم لتلك المهمة السهلة المتمثلة في تسجيل أو (أرشفة) الاصطلاحات التعبيرية المختلفة (وهو ما نقوم به أحياناً بطريقة علمية، حتى لا نقول بطريقة وافية، وذلك في إطار حالة من الاستعجال أصبحت ضاغطة أكثر فأكثر)، فإن الأهم هنا هو كيف ننقذ لغة معينة من الانقراض، لغة حيّة و"بمنأى عن الانقراض"؟.

والآن ما رأيك في هذه النزعة الخلاصية (أو الخلاصوية) Sotériologie الجديدة؟ هل هي جيّدة؟ وإذا كانت كذلك فتحت أية يافطة تم ذلك؟ ثم ما قولك في أنه، ولجهة إنقاذ أناس ضائعين وسط لغتهم، ومن ثمة خلاصهم، باستثناء لغتهم، كان من المستحسن العدول عن هذه الخطوة، أو بالحد الأدنى العدول عن محاولة بلوغ شروط مثلى للإبقاء على لسان معيّن "بأي ثمن كان". والسؤال المقلق الذي قد نجد أنفسنا مضطرين لطرحه هو: ماذا لو رجحت الكفة لصالح إنقاذ الناس على حساب ألسنتهم؟. ذلك أننا نعيش في زمن ليس من المستبعد أن يطرح فيه أحياناً مثل هذا السؤال. إن خارطة توزع البشر اليوم تظهر أنه يتوجب على بعضهم أن يتنازل لتلك الهيمنة المتجانسة للغات المسيطرة، كما على بعضهم الآخر أن يتعلم لغة الأسياد، لغة المال والآلات، بل إنهم

مطالبون بفقدان لغاتهم لكي يصمدوا أو يعيشوا حياة أفضل. ثم من أين سيأتي الخلاص: هل سيأتي عبر اقتصاد مأساوي أو نصائح مستحيلة، إذ لم أكن أعلم، بشكل مسبق، أن خلاص الآخر يفترض بالضرورة خلاص اللسان، ولا داعي لكي نذكر مرة أخرى كم هي غريبة كلمة **خلاص** Salut في اللغة الفرنسية، مع ذلك لننطلق من جديد.

إن ما أقوله هنا، أو ما كنت قد قلته، أي هذا الأنا الذي اختصرته في كلمة واحدة هو في حقيقة الأمر ذلك الشخص الذي، فيما أتذكر، منع في الجزائر من إيجاد منفذ إلى لغة أخرى غير الفرنسية (كالعربية الدارجة أو الفصحى، أو البربرية(*) (الأمازيغية).. الخ). لكن هذا الأنا ذاته يعود لشخص منع هو أيضاً من إيجاد منفذ للغة الفرنسية بطريقة مغايرة، طريقة ملتوية ومضلّلة. صحيح هي طريقة مغايرة لكنها في النهاية تفضي إلى **ممنوع**، وهو الأهم. هذا الممنوع تم بموجبه منع الوصول إلى تلك التطابقات التي تسمح بظهور سير ذاتية مطلقة، وكذا ظهور مذكرات بالمعنى الكلاسي.

على أن المعضلة القائمة هنا هي بأية لغة يمكننا كتابة مذكرات شخصية معيّنة وليس هناك لغة أم (أصلية) مسموح التعامل بها؟ كيف أقول مثلاً "لقد تذكرت كذا" في الوقت الذي أنا مطالب فيه

(*) يستخدم أغلب الباحثين في منطقة المغرب العربي والجزائر تحديداً مصطلح "أمازيغ" وهم السكان الأوائل الذين سكنوا المنطقة، بدل المصطلح القديم الذي يستخدمه دريدا وهو البربر. لذا، وتجنباً لأي لبس سأضع المصطلحين معاً.

(المترجم)

باختراع لغتي وأناي معاً في آن واحد، بمعزل عن هذا التدفق الذي أفضى إلى فقدان الذاكرة، وأثار هذا الممنوع المزدوج؟

لكن ما معنى هذا التدفق الذي أثار هذا الممنوع؟ لماذا تستخدم هذا الأسلوب في حديثك؟

عندما أقول هذا التدفق المندفع والهائج فهذا يتناسب مع طبيعة التفكير القائم حول التوترات ورهانات القوة، المحتمى بالطبيعة الغيورة، المنتقمة، المختبئة من شظايا لهيب القوة الدافقة الكامنة في أعماق هذا الكبت répression، وهذا ما أبقى على هذا الفقدان متيقّظاً، فاعلاً، ديناميكياً وقوياً بحيث لم يعد مجرد نسيان وكفى. إن المنع في حد ذاته ليس سلبياً، فهو لا يفضي إلى الخسارة، ولا إلى خسارة هذا النسيان الذي ما فتئت تسهر على تنظيمه تنظيماً يمس أعمق أعماقه في ليالٍ مدلهمة تشبه ليالي جهنم. إنه، أي المنع، يتدحرج وينتشر كما أمواج البحر آخذة في طريقها كل ما يعترضها على شواطئ أعرفها معرفة جيدة. إنه يحمل معه كل شيء حتى البحر بضفتيه، إنه يلف، يأخذ، ويستغني من كل شيء، إنه يحمل معه، يجلب، ينفي ويستشيط غضباً لشدة ما يعترضه في طريقه، إنه نوع من المكابرة أو "ركوب الرأس" لرأسمال لا رأس له، أكثر من ذلك فأنا أحب الكلمة الفرنسية "Déferlement" أي التدفق (أو الدفقان) وسأبين ذلك لاحقاً...

إذن أليس من الأفيد لنا أن نتجنب هنا اعتماد الأصناف العائلية، كأن نحاول التأكد من المجال الذي تنتمي إليه كنقطة أولانية للبحث، فنكون مثلاً قد سقطنا في مهب التساهل والآلية إذا ما تحدثنا عن ممنوع ما.

صحيح أن الممنوع يحمل منطوقاً واضحاً إذا ما تمسكنا بالدلالة المباشرة للكلمة، مع ذلك فالممنوع يتميّز بميزة خاصة: إنه **استثنائي** *Exceptionnel* وأساسي *Fondamental* ومتدفق أيضاً. والواقع أن المنع من الوصول أو اكتساب لغة معينة لا يعني المنع من أي شيء، من أي حركة، من أي فعل، فالمنع يشمل القول (أو الكلام) فقط. يشمل بعض القول، هذا كل ما في الأمر. لكن الحاذق سيعرف أن هنا مربط الفرس، لأن هذا المنع الأخير هو المنع الأساس، المطلق، المنع الذي يشمل القول والإلقاء على حد سواء، لذا، فإن الممنوع الذي هو مفصل حديثي، الممنوع الذي ما فتئت أذكره وأكرره ليس ممنوعاً من بين ممنوعات كثيرة أخرى.

من جهة أخرى، فإن كلمة "ممنوع" ما زالت تبدو كلمة محفوفة بالمخاطر، إنها تبقى سهلة وملتبسة ما دام أن مسألة وضع حد لها لم تطرق بتاتاً لا بما هي فعل قانوني - سواء أكانت في شكل مرسوم رسمي أم في شكل حكم قضائي - ولا بما هي عتبة فيزيائية طبيعية وعضوية. بيد أن الأمر هنا لم يكن كذلك، فلم تكن هناك لا تخوم طبيعية ولا حدود قانونية. فقد كنا نملك خياراً، بل كنا نملك الحق الشكلي في تعلم أو عدم تعلم العربية، البربرية (الأمازيغية) أو العبرية، فالأمر لم يكن غير قانوني، ولا كان يمثل جرماً على الأقل عندما كنا في الثانوية - الأمر يتعلق أساساً بالعربية أكثر من تعلقه بالبربرية (الأمازيغية)، أما فيما يخص العبرية، فلا أتذكر أن أحداً كان يرغب في تعلمها. إذن فالمنع، كما نلاحظ، كان يتم بطرق مغايرة، طرق ماكرة، سليمة، صامتة وليبرالية، طرق هدفها الأخذ بأنواع أخرى من الثأر سواء في طريقة تسويغها أو في

طريقة عطائها، ذلك أن كل شيء كان معطى في الواقع، أو مسموحاً به في حده الأدنى. إن تجربة المنع المزدوج هذا لم تترك لأي كان فرصة الطعن أو النقض، لم تترك لي أي فرصة، إنه لا يمكنها إلا أن تكون تجربة **اجتياز الحد**، وهذا حتى لا أستخدم كلمة "**الخرق**" "Transgression"، فالكلمة سهلة ومثقلة في الوقت ذاته. وهذا ما يفسر إلى حد بعيد لماذا أتحدث الآن عن التدفق (أو الدفقان).

على أنني أجد في اجتياز الحد هذا معنى آخر من المعاني المتضمنة فيه وهو معنى الكتابة، معنى مفصلي ما زلت أطوف حول تمثاله منذ عشرات السنين. نعم إنها "الكتابة"، هكذا تسمى من بين مسميات كثيرة موجودة، فهي بمثابة طريقة ودودة ويائسة لتملك اللغة ومن خلالها كل كلمة مانعة بمقدار ما هي ممنوعة (كانت الفرنسية بالنسبة لي هذين الأمرين معاً)، ومن خلال كل لسان ممنوع أيضاً، وهي ذلك الثأر المشبع بالحب والغيرة لتقويم جديد يسعى إلى إعادة اللغة، ويؤمن في الوقت ذاته بقدرته على إعادة اكتشافها ومن ثمة إعطائها شكلاً مميّزاً في نهاية المطاف (أولاً عبر مسخها أو تشويهها، ثم عبر إصلاحها، وأخيراً عبر إدخال تغييرات عليها أو تحويلها)، وكذا عبر حملها على دفع ضريبة هذا المنع، أو جعلها تستوفي ثمن هذا المنع ما يفضي إلى محصلة واحدة في النهاية.

هذه المحصلة بدورها ستكون فرصة لإقامة احتفالات غريبة، ومظاهر احتفاء سرية ومخجلة، ومنه ستكون فرصة للقيام بعمليات مشفرة تجعل من هذه الكلمة، أي من هذه الكتابة، قاسماً مشتركاً يتنقل بين كل اللغات.

لكن السؤال المطروح هنا هو: كيف سنوجه هذه الكتابة، وكيف سنواجه هذا التملك المستحيل للغة المانعة - الممتنعة، وهذا الرسم الذي مارسته الذات داخل اللغة **المحرمة** - المحرمة بالنسبة لي، وعلي، ولكن أيضاً المحرمة من قبلي (ذلك أنني، وكما لا يخفى على أحد، من المدافعين عن اللغة الفرنسية بطريقتي الخاصة؟).

لقد كان من المستحسن أن أصوغ مقاربتي كما يلي: كيف يمكن توجيه ذلك الرسم الذي مارسته الذات على تلك اللغة المحرمة، ليس فيها فقط وإنما فيها وفي محيطها، تماماً كما لو وضعنا إلى جانب الشكوى التي قدمناها تظلماً لجهة إجراء الاستئناف أيضاً. ذلك أن هذا الرسم لا يمكن أن يوجه في مثل حالتي انطلاقا من بُعدي الزمان والمكان الخاصين بلغة أم (أصلية) محكية، لسبب بسيط وهو أنني لا أملك لغة أم (أصلية) أخرى سوى الفرنسية.

نعم ليس لدي لغة حتى أتمكن من رفع التظلم، هذه الكلمة التي كنت أحبها ولكنني أود سماعها باللغة الانجليزية حيث نجد أنها تعني الشكوى دون تقديم الاتهام، كما تعني المكابدة والألم. لذا، ينبغي التفكير هنا في تظلم أصيل بكل المعاني ما دام أنه لا يرى في ذلك حتى مجرد خسارة: وعلى كل فأنا ليس لدي ما أخسره حسب معرفتي سوى الفرنسية، لغة الحداد الحزينة، من هنا فإننا، وخلال تدفق من هذا القبيل، سنبدأ في تعلم كيف يسكننا الحزن على شيء لم نتملكه أبداً. ذلك أنه لم يكن في مقدوري بتاتاً أن أسمى هذه اللغة التي أحدثك بها الآن "لغتي الأم" (الأصلية)،

فكلماتها لا تحضرني، بل إنني أجد صعوبة كبيرة في نطقها، في الوقت الذي يعتقد فيه البعض بأنها "لغتي الأم" (الأصلية).

هذه هي الثقافة التي أوصلتني إلى تقدير مدى النكبات التي يمكن أن يتجرعها البشر جراء البحث عن لغة أم (أصلية) غيبية أو غنوصية، لذا فقد حولت وجهة ثقافتي نحو الثقافة السياسية.و "لغتي الأم"(الأصلية) هي ما يقوله الآخرون، ما يتحدثونه، أما أنا فأذكر ما يذكرون وأسجل مساءلاتي حوله. أطلب منهم، وبلغتهم هم، أن يسمعونني لأنه من الخطورة بمكان أن لا أفهم ما يقولون، وأن لا يدركوا عما أتحدث، وبخاصة أثناء احتفائهم اللطيف بذكرى "الأخوة" الذي يعيدنا إلى نقطة البداية، حيث الأخوة واللغة الأم (الأصلية)... إلخ.

إن الأمر يبدو وكما لو أنني كنت أحلم بأن أوقظهم يوماً لأقول لهم: "اسمعوني جيدا، انتبهوا، الآن لم يعد هناك مجال للمزاح، ينبغي عليكم أن تقوموا وأن تنصرفوا وإلا قد يصيبكم مكروه ما، لكن، وبما أن النتيجة واحدة، فقد لا يصيبكم أي مكروه آخر سوى الموت. وستكتشفون يوماً أن لغتكم الأم (الأصلية)، أو على الأقل ما اصطلحتم على تسميته كذلك صماء، بكماء لا تقوى على تقديم أي جواب لكم. إذن فلتنطلقوا الآن، إذن انطلقوا... لكن لا تنساقوا وراء من يقول لكم بأنكم شعب قائم بذاته، وكفوا عن الإنصات دون إبداء الرأي لمن يقول لكم "اسمعوا".

- 6 -

أما فيما يخص عبد الكبير الخطيبي فيتحدث من جهته عما يسميه "لغته الأم" (الأصلية)، اللغة الفرنسية تحديداً، مع أنه يتحدث عنها بلغة أخرى هي اللغة الفرنسية أيضاً، وهذا ما سارع إلى إفشائه علناً عبر مقاله المخطوط باللغة الفرنسية، ما يجعل من "لغته الأم" (الأصلية) سراً لم يحسن الحفاظ عليه.

نعم، إن صديقي عبد الكبير الخطيبي لا يتردد في استخدام "لغتي الأم" (الأصلية) مع أن قشعريرة واضحة تصاحب نطقه لها، قشعريرة يمكن تبنيها بعيداً عن ذلك الزلزال اللغوي الخفي الذي يؤسس لتلك الرتابة الشعرية التي تطبع كل أعماله، مع ذلك يبدو أنه لا يتوانى في استخدام تعبيره السابق "اللغة الأم" (الأصلية). هذه هي الثقة التي أجدها داخل هذا الإسرار، بل أكثر من ذلك إنه يؤكد ما يحيل إلى شيء آخر وهو واقعة التملك، حتى إن الجرأة لتنتابه فيظهر مؤكداً لتملكه تماماً كما لو أن تهديده الذي يقول فيه "لغتي الأم" (الأصلية) لم يتسرب إليه أي شك.

إذن لقد حسم صديقنا أمره هنا، صحيح أنه أنجز ذلك بلطف، إن لم نقل بصمت، ولكنه حسمُ على كل حال، أما الحد الفاصل لهذه السمة فيطبع بطابع الحكاية التي أنا بصدد سردها هنا، الأسطورة التي أعمل على نشرها، العقدة التي أعد أنا ممثلاً لها وشاهداً عليها في الوقت ذاته، وهو ما كان مصدر احتجاج

للآخرين. على أن هذا الحد الفاصل لهذه السمة ذاتها ستجعلها متباينة مع التجربة التي نبذها الخطيبي متى تعلق الأمر بالإنصات لنداء الكتابة، وهو النداء الذي، فيما نعتقد، بدأ بالإنصات إليه عندما بدأ يتردد صداه. لقد بلغه عن طريق الصدى، وعاد إليه كرجع صدى لغة ثنائية Bi - langue، فالخطيبي يحمل في أذنيه طنين لغة مضاعفة.

مع ذلك، فإننا ما إن نفتح هذا السفر الكبير الذي يحمل عنوان **حب مزدوج اللغة** *Amour bilingue*، حتى نجد أن الخطيبي قد اتخذ أماً له، أمّا واحدة وأي أم. فهذا الذي كان يتحدث بصيغة المتكلم بدأ يجهر بصوته انطلاقا من لغة أمه. إنه يعود بذاكرته إلى لغة أصلية يكون قد "فقدها"، لكن دون أن يفتقدها. إنه ما زال يحتفظ بما فقده، في الوقت ذاته الذي ما زال يحتفظ فيه بما لم يفقده أيضاً، كما لو أنه كان في مقدوره ضمان خلاصه حتى وإن تم ذلك عبر خسارته الذاتية. لقد كانت لديه أم واحدة وأكثر من أم دون شك، لكن مع ذلك فقد أصبحت له لغته الأم (الأصلية)، اللغة الأم (الأصلية)، لغة أم (أصلية) واحدة بزيادة لغة أخرى. هنا يمكنه أن يقول بأن له "لغته الأم" (الأصلية) دون أن يطفو إلى السطح أي أثر لأدنى اضطراب من أي نوع كان:

"نعم لقد فقدتني لغتي الأم (الأصلية)، فقدتني، لكن هل معنى ذلك أنني توقفت عن الكلام، أو عن الكتابة بلغتي الأم (الأصلية) وبمتعة كبيرة. ثم ماذا تقدم لي هذه اللغة الثنائية عبر هذه الفرصة؟ هنا سأقول شيئا آخر: إن أمي كانت أمية Illettrée، وكذا عمتي التي كانت بمثابة شبه مربيـة لي. هذا التشوه الخلقي قد يكـون هو سبب

توجهي للكتابة في منزلة بين المنزلتين: بين الكتاب المقدس وبين لغتي الأجنبية، وذلك عبر تجرعي لأوجاع ولادة ثانية بمعزل عن كل أم، الأم الواحدة الوحيدة. ذلك أنني عندما كنت طفلاً كنت أنادي خالتي بدلاً عن أمي، وأنادي أمي عوض الآخر، ليبقى الآخر دائماً هو الآخر".

أما بالنسبة لأمي أنا، ومع أنها أصبحت في سنواتها الأخيرة تعاني من صعوبات في النطق مع فقدان للذاكرة بدأ يتطور شيئا فشيئا إلى أن نست اسمي أنا ذاتي، ومع أنها لم تكن "أمية" إلا أنها، وعلى النقيض التام من التقليد الذي شب عليه الخطيبي لم تكن تتحدث، كما كانت الحال بالنسبة لي، إلا تلك اللغة التي، وكما اقترحت من قبل، يمكن أن نسميها "لغة أم" (أصلية).

والآن لنبدأ في تعيين الأشياء تعييناً مباشراً، آخذين بعين الاعتبار خطر أن يكون هذا التعيين قد تم بشكل سيء.

أولاً: الممنوع: عندما نحتفظ بهذه الكلمة "الممنوع" على سبيل الاحتياط، فإننا سنجد أن هذا الممنوع يمارس تحديداً، كما أذكر، على اللغتين العربية والبربرية (الأمازيغية) فهو بالفعل، بالنسبة لمن هم من جيلي، أشكال ثقافية واجتماعية، لكنه يبقى قبل هذا وذاك مسألة مدرسية، مسألة قد تصادفنا جميعاً "في المدرسة"، بحيث تكون أجزاءاً أو قراراً أكثر من كونها عدة بيداغوجية. فالممنوع، في الواقع، ينبثق عن "نسق تربوي" كما يحلو للبعض أن يعبّر عن ذلك في فرنسا، منذ بعض الوقت، دونما ابتسامة أو قلق. ذلك أنه، ونظراً لمختلف أنواع الرقابة - حتى لا أقول الكبت

الكولونيالي (الاستعماري) وبخاصة في المناطق الحضرية وشبه الحضرية التي كنت أعيش فيها. ونظراً للحواجز الاجتماعية الموجودة، ومختلف أنواع العنصرية، فقد تفشت ظاهرة كره الأجانب Xénophobie وعنوانها وجوه مكشرة حيناً، ووجوه "مرحة" قد تصل حد البشاشة أحياناً أخرى.

ونظراً للاختفاء التدريجي للعربية بما هي اللغة الرسمية اليومية والإدارية، فإن الملاذ الأخير بقي المدرسة حيث كانت العربية تدرس لكن كلغة أجنبية. وعليه، وانطلاقاً من هذا النوع الغريب من اللغة الأجنبية، بما هي لغة الآخر، تنحدر غرابة وقلق يخصان الآخر بما هو القريب الأكثر قرباً أي Unheimlich. أما بالنسبة لي، فإن العربية كانت لغة الجار، جاري أنا، فقد كنت أقطن على تخوم حي عربي، على حدوده اللامرئية والمتعذر عبورها في الوقت ذاته، حيث كان العزل (أو الميز) بالدرجة نفسها من النجاعة والبراعة. مع ذلك فإنني سأقلع هنا عن تلك التحليلات الناعمة اللطيفة التي تنظر إلى الجغرافيا الاجتماعية للسكن كما لو كانت هي ذاتها الخرائطية التي تتوزع بموجبها أقسام مدرسة ابتدائية، حيث كان لا يزال يوجد عدد كبير من التلاميذ الصغار الجزائريين من العرب ومن القبائل، طبعاً قبل أن يختفوا على عتبة المرحلة الثانوية. إن كل قريب هو بعيد ِبعداً متناهياً بمعنى من المعاني، هذه هي المسافة التي حاولت أن ترسخها في أذهاننا، إن صح هذا التعبير، تلك التجربة التي لا تنسى والتي يمكن تعميمها في الوقت ذاته.

والحاصل أن تدريس اللغة العربية كمادة اختياريه بقي مسموحاً

به، لكن دون تشجيع أو تدعيم، فقد تم اقتراحها من قبل وزارة التربية الوطنية - قسم التعليم العمومي - بنفس الصيغة والشكل الذي تم بموجبه اقتراح تدريس اللغات الأجنبية الأخرى في كل ثانويات الجزائر الفرنسية! وكأنهم كانوا يريدون أن يقولوا لنا، بل إنه هو ما قالوه فعلاً "حذار، إن اللاتينية إجبارية لاجتياز الصف السادس، وبما أن الفرنسية هي من تحصيل الحاصل، فهل تريدون أن تتعلموا بالإضافة إلى ذلك الانجليزية أم العربية أم الاسبانية أم الألمانية؟" أما البربرية (الأمازيغية) فلم توضع مطلقاً على لائحة الاختيار.

ومع أنني لا أملك إحصائيات دقيقة في هذا المجال، إلا أنني أتذكر تماماً أن نسبة التلاميذ الذين كانوا يختارون العربية كانت في حدود الصفر، فهم ولقلتهم، بل ولندرتهم، كانوا لا يشكلون مجموعة متجانسة بالمعنى الحقيقي للكلمة، وذلك لأن غالبية اختياراتهم تبدو غريبة ومخالفة للمألوف.

وهكذا، فقد يكون من بينهم أحياناً من ينحدرون من أصول جزائرية (أي "الأهالي" indigènes حسب النعت الرسمي) ممن أسعفهم الحظ وبلغوا المرحلة الثانوية - علماً أن ليس كل الجزائريين المقبولين يقومون باختيار العربية كلغة تعلم ثانية - ومن الملفت أن بعض من كانوا يختارون العربية كانوا، فيما أعتقد، من صغار فرنسيي الجزائر والذين ينحدرون في غالبيتهم من أصول غير حضرية كأبناء الكولون (المعمرين) القادمين من "الداخل". وغني عن القول أنهم، في الواقع، يكونون في مجملهم تحت تأثير نصائح، إن لم نقل، رغبات أولياء أمورهم لأن الضرورة فرضت ذلك، فهم

يفكرون في أنهم قد يحتاجوا إلى هذه اللغة في قادم الأيام لأسباب تقنية ومهنية، ومنها أن يتمكنوا من إسماع صوتهم، ومن ثمة الإنصات إليهم، وأكثر من ذلك جعل عمالهم الزراعيين يطيعونهم طاعة عمياء.

أما بقية الفئات، ومن ضمنهم أنا، فقد استسلمنا بكل سلبية لهذا المنع. هذا المنع الذي صار مسألة لها أهميتها، مثلها في ذلك مثل مسألة اللاجدوى المتنامية من وراء عملية التهميش المنظمة للعربية والبربرية (الأمازيغية) على حد سواء. ذلك أن ما تعرضتا له من إنهاك وتصفية إنما تمت برمجته وفق مقتضيات السياسة الكولونيالية (الاستعمارية) التي تظاهرت بمعاملة الجزائر تماماً كما كانت تعامل الأقاليم الثلاثة الأخرى.

ومع أنني لا أود الدخول في تحليلات مفصلة حول سياسة اللغة هذه، في الوقت الذي لا أود فيه أيضاً أن ألجأ إلى ذلك الاستخدام السهل لكلمة "كولونيالية"، فكل ثقافة في الأصل هي "كولونيالية" (استعمارية)، بحيث إن الاعتماد على الاشتقاق وحده غير كاف، كما ينبغي أن نذكر. فكل ثقافة أيضاً تتكون عبر فرضها أحادي الجانب لما يشبه سياسة معيّنة حول اللغة، فالسيطرة كما نعلم، تبدأ عبر تملك سلطة التعيين، الفرض، ومن ثمة شرعنة التسميات المختلفة. هذا **الحديث** سيحملنا إلى الاستشهاد بما وقع للفرنسية، في فرنسا ذاتها، خلال الانتقال من فرنسا الملكية إلى فرنسا الثورية. هذا الإعذار القوي قد يكون منفتحاً، قانونياً، مسلحاً أو على درجة من المكر، لابساً لبوس الإنسانوية "الشاملة"، وأحياناً أخرى متخفياً تحت ستار الضيافة الأكثر سخاءً. إنه يسبق أو

يتبع الثقافة كما ظلها بشكل دائم.

إن الأمر هنا لا يتعلق بمحو ما يمكن أن نطلق عليه الخصوصية المتغطرسة أو تلك الفظاظة الصادمة لما يمكن أن نسميه الحرب الكولونيالية (الاستعمارية) الحديثة، والتي كانت موجودة "بالفعل" في زمن الغزو العسكري أو في زمن الغزو الرمزي الذي قام بتمديد الحرب بطرق أخرى.ذلك أن البعض، ومنهم أنا، كان قد جرب الفظاظة الكولونيالية (الاستعمارية) على ضفتي المتوسط، إن صح القول، مع ذلك فإن هذه الفظاظة تظهر وبطريقة مثالية، النية الكولونيالية (الاستعمارية) المتضمنة في كل ثقافة، إنها الشاهد "الحي" عليها.

إن أحادية الآخر اللغوية هي، أولاً وقبل كل شيء، تلك السيادة، ذلك القانون القادم من مكان آخر، ما في ذلك شك، لكنها أيضاً هي، قبل هذا وذاك، لغة القانون ذاته، والقانون بما هو لغة. هذه التجربة الخاصة بالقانون تجربة فريدة ومستقلة ذاتياً على ما يبدو، وذلك أنني مضطر للحديث عنه من جهة، وأن أتملكه حتى أفهمه وأدركه كما لو أنني أنا ذاتي كنت مصدره من جهة ثانية. مع ذلك فهي، أي التجربة المتعلقة بالقانون، تبقى بالضرورة تابعة *hétéronome* لأن ماهية القانون مبنية كذلك. وجنون القانون هذا يفترض السكنى داخل مأوى هذه التبعية - الذاتية، إن لم نقل التبعية للذات.

إذن، وبالاعتماد على هذا العمق الذي هو محور انشغال الأحادية اللغوية المفروضة من قبل الآخر، وعبر سيادة للماهية الكولونيالية (الاستعمارية) التي ما فتئت تسعى بكل أنواع الزجر وبما

لا يمكن كبح جماحه، لاختصار اللغات المبنية على التعدد إلى بعد واحدي فقط، أي العودة إلى هيمنة المتجانس. إننا نلحظ ذلك في كل مكان، حيث نجد أن هذه الهيمنة - المتجانسة homo-hégémonie تبقى، وفي مختلف الثقافات، في قلب الفعل الإبداعي، تمحو الثنيات تارة، وتعيد صياغة النص تارة أخرى. فقوة البأس الكولونيالي (المستعمر) ذاتها في حقيقتها الباطنة ليست في حاجة لتنظيم فعاليات استعراضية كالارساليات الدينية، أعمال الإحسان أو الخدمات الإنسانية، استكشاف الأسواق، الحملات العسكرية أو عمليات الإبادة الجماعية.

قد يتهمني بعضهم هنا بأنني أقوم بخلط الأشياء، فأجيب بلا، ولكن أيضاً بنعم. ذلك أنه يمكننا، بل ويتحتم علينا، بعد أن نكون قد أخذنا حذرنا من التمايزات الأكثر صرامة، وكذا بعد أن نكون قد احترمنا كل محترم قابل للاحترام، أن لا تغيب عن ناظرنا تلك القوة المظلمة المشتركة، تلك الغريزة الكولونيالية (الاستعمارية) التي بدأت في التسرب، والتي لن تتأخر في غزوه ولكن عبر صياغة فيها الكثير من المراوغة وهي "العلاقة مع الآخر"! أو "الانفتاح على الآخر"!.

لهذا السبب بالذات، فإن "الأحادية اللغوية" تعني أيضاً شيئاً آخر سيبدأ بالانبلاج رويداً ومفاده: إننا بكل الأحوال لا نتكلم إلا لغة واحدة - ومع ذلك فنحن لا نملكها، إي أننا لا نتكلم أبداً إلا لغة واحدة - ولكنها غير متساوقة ومرجعيتها دائماً الآخر، الآخر المحروس من قبل الآخر. إذن فهي آتية من الآخر، متموضعة عند الآخر وعائدة إلى الآخر في نهاية المطاف. وغني عن القول أنه

عندما سدت الطريق أمام لغة هذا الآخر وكتابته- وأقصد العربية والبربرية (الأمازيغية) هنا - كما هي الحال بالنسبة لكل الثقافة المرتبطة بها، فإن تدوين هذا الحد لا يمكن أن يمر هكذا دون أن يترك آثاره. أكثر من ذلك، فإنه من المنتظر أن يضاعف، وبشكل خاص، دلالات الانبهار أثناء استخدامه المشترك والمفضل للغة الفرنسية. أما اللغة المغلوبة على أمرها أصلاً - العربية والبربرية (الأمازيغية) في المستهل - فقد تحولت دون أدنى شك إلى اللغة الأكثر غربة.

لكن هذا الامتياز لن يستمر دون أن يحدث هناك بلبلة فريدة في الجوار، فأنا نفسي أتساءل في مرات عديدة: أليست هذه اللغة المجهولة هي لغتي المفضلة بالفعل، أو الأولى من بين لغاتي المفضلة (بما أنني أقر هنا بامتلاكي لأكثر من واحدة). إنني أحب سماعها وبخاصة عندما تكون بعيدة عن أي "تواصل" أو "تخاطب" كما هي الحال في مجال الاحتفائيات الشعرية ذات المنحى الغنائي أو الصلاة. وعندها سيكون من الصعوبة بمكان بالنسبة لي، أن أبيّن أن اللغة الفرنسية ذاتها هي أيضاً ممنوعة علينا، لكنها كانت ممنوعة عنا بطريقة أخرى.

ثانيا: الممنوعة: من المفيد أن أعيد التذكير هنا بأن مجال هذه التجربة الأول هو المدرسة، فقد تكون الحكاية فعلاً متعلقة بوجود فناء وأقسام، فناء وأقسام مدرسية. إن ظاهرة من هذا القبيل تفترض أن تتنوع على مواطن متعددة، فهي تحوم حول دوائر معيّنة، دوائر متداخلة (مختلفة المراكز) Excentriques ومتراكزة (متحدة المركز) Concentriques في الوقت ذاته من الاسيجة السوسيو - لغوية.

وهكذا كانت الفرنسية بالنسبة لتلاميذ المدرسة الفرنسية في الجزائر سواء أكانوا جزائريين أصلاء، "مواطنين فرنسيين"(*)، "مواطنين فرنسيين في الجزائر"، أو كانوا من أولئك الذين ولدوا في ذلك المحيط الخاص بيهود الجزائر الذي كان في الواقع هذا وذاك على حد سواء ("كما كانوا يسمون تحت الاحتلال دون احتلال "اليهود الأهالي" "Juifs indigènes". لكن ومع أنهم ينعتون كذلك إلا أنهم كانوا، ولبعض الوقت، يحسبون ضمن تعداد الفرنسيين) بمثابة اللغة الأم (الأصلية) المفترضة لهؤلاء جميعاً، لكن مع تنويه بسيط وهو أن مصدرها، معاييرها، قواعدها، قانونها جميعها توجد في مكان آخر. لقد كانت دائماً في وضع الإحالة إلى مكان آخر، إذا ما أردنا أن نقلب عنوان ملتقانا هذا، والمكان الآخر قد يكون الحاضرة Métropole والتي تعني فيما تعني، المدينة - العاصمة - الأم - الوطن. فنحن عندما نقول مثلاً فرنسا فإننا نقصد في الغالب الحاضرة، على الأقل في مستوى اللغة الرسمية، وفي الجرائد وفي المدرسة. أما فيما يخص عائلتي، فإننا كنا دائماً، وحتى بيننا وبين

(*) لجهة البحث عن المعنى القانوني حول تاريخ المواطنة المدهش في الجزائر (والذي أعتقد أنه لا يوجد ما يماثله في العالم)، فإنني أحيل هنا إلى ذلك المقال الرائع الذي كتبه لوي أوغستين باريار Louis-Augustin Barrière حول موضوع المواطنة في الجزائر "Le puzzle de la citoyenneté en Algérie"، الذي نشر في مجلة *Gisté* (بقوة القانون *Plein droit* عدد 27 و30 نوفمبر 1995) والذي يعد في الحقيقة عملاً مثالياً اليوم. وقد جاء في مستهل المقال (مع التأكيد على ضرورة قراءته كاملاً): "عملياً، وحتى الاستقلال كان ينظر لمسلمي الجزائر بوصفهم أناساً أو سكاناً فرنسيين، ولم يكن ينظر إليهم بما هم مواطنين فرنسيين. هذا التمييز لا يفسر إلا تفسيراً تاريخياً".

ذواتنا، نستخدم كلمة "فرنسا" (هؤلاء لديهم القدرة على قضاء عطلتهم في فرنسا"، "إنه ذاهب لإكمال دراسته في فرنسا"، "إنه ذاهب للعلاج في فرنسا وتحديداً في مدينة فيشي Vichy"، "هذا الأستاذ قدم من فرنسا"، "هذا الجبن من فرنسا").

إنها الحاضرة إذن، المدينة - العاصمة - الأم - الوطن، وموطن اللغة الأم (الأصلية)، إنها ذلك المكان غير الموجود. ذلك البلد البعيد والقريب في الوقت ذاته، بلد بعيد قريب غير أجنبي، لكنه غريب عجيب ومسكون بالأشباح. والصدق يقال إن من بين الأوجه الأولى والمهيبة لمفهوم الشبحية Spectralité هي الشبحية ذاتها، لذا، فأنا أتساءل أليس هذا الشبح هو فرنسا، أي كل ما يحيل إلى هذا الاسم (لنفترض أن هناك بلداً معيناً، وأن كل من يحمل اسم هذا البلد لا يمكنه أن يكون شيئاً مغايراً، حتى ولو تعلق الأمر هنا، تحديداً، بوطنيين لهم صيت ولا يمكن اتهامهم).

هذا البلد الذي يمكن أن نطلق عليه بلد الأحلام يوجد على مسافة غير موضوعية مني، فهو، وبما أنه يؤخذ كأنموذج للقول الفصيح والكتابة الراقية، يمثل بهذا المعنى لغة السيد (والواقع أنني لم أعرف طوال حياتي سيداً آخر). ذلك أن السيد يتمظهر دائماً في صورة معلم المدرسة، ما يسمح لهذا الأخير بأن يكون الممثل الأمثل لمفهوم السيد بعامة وفق المقاييس الشاملة التي تفرضها الجمهورية الفاضلة. أكثر من ذلك فإن الحاضرة في نظر أحد فرنسيي فرنسا الصغار تعني المكان الآخر، مكان آخر يحتل مكانة قوية وموضعاً آخر في الوقت ذاته، ومنذ أن تمت موضعة هذا الهناك الوهمي كان يتوجب البدء في محاولة قياس - وإن كان ذلك يبدو

عملاً عبثيا بالطبع - المسافة اللا متناهية أو الجوار الذي لا يمكن قياسه من ذلك المأوى المخفي، ولكن المشع، والذي تصلنا نماذجه في التمييز، التصويب، الأناقة، واللغة الأدبية والخطابية. فلغة الحاضرة كانت هي اللغة الأم (الأصلية)، بل إنها في الحقيقة كانت بديلاً للغة الأم (الأصلية) (ونتساءل أليس هناك في الأفق شيء آخر؟) بما هي لغة الآخر.

والحال أن هناك ظاهرة مماثلة بالنسبة لذلك "البروفانسي" Provençal الصغير، أو ذلك "البروطاني" Breton الصغير أيضاً. فباريس Paris يمكنها دائماً أن تضطلع بدور الحاضرة، أن تحتل موقعاً متميزاً في قلب ذلك القروي الوالج إليها للتو، تماماً كما هي حال الأحياء الجميلة قياساً ببعض أحياء الضواحي، باريس هي أيضاً عاصمة الثقافة والأدب.

بيد أن المعضلة هنا تكمن في أن الآخر، والحال هذه، لن تبقى له النظرة المتعالية ذاتها عن هذا الهناك لأسباب وجيهة عدة، منها إبعاد الكائن - الموجود - هناك، والسلطة غير المقبولة لسيّد يقطن ما وراء البحر *Outre - Mer*، لأنه ببساطة ينقصه بحر

إننا نعرف من خلال معرفتنا الباهتة، ولكن الأكيدة، أن الجزائر Algérie لم تكن البتة مقاطعة فرنسية، وأن الجزائر Alger ليست حياً شعبياً. لقد كنا نعتقد، ومنذ طفولتنا أن الجزائر بلد قائم بذاته، وأن الجزائر (العاصمة) هي مدينة في هذا البلد، وأن كل هذا يحيل إلى معنى ملتبس، لأن الكلمة، أي الجزائر، لا تحيل لا إلى دولة، ولا إلى أمة، ولا إلى دين، بل أستطيع القول أنها لا تحيل أصلاً حتى إلى جماعة أصيلة. وعليه، ففي هذا البلد الذي هو

الجزائر كنا نلحظ بداية تشكل "سيمولاكر" Simulacre أي صورة طيفية لبنية ثنائية الدلالة كأن نقول: العاصمة/ المقاطعة ("الجزائر/ الداخل"، "الجزائر/ وهران"، "الجزائر/ قسنطينة"، "وسط الجزائر/ ضاحية الجزائر"، الأحياء الراقية، وهي إجمالاً تقع في أعالي الجزائر/ الأحياء الفقيرة وتقع في المناطق المنخفضة.)

- 7 -

إن ما قمنا به لحد الآن قد يكون بمثابة توصيف لحلقة أولى من العموميات، فما بين الأنموذج المسمى المدرسي، واللغوي أو الأدبي من جهة واللغة المحكية من جهة أخرى يوجد البحر *La mer* ذلك الفضاء الرحب المشبع برمزية لا متناهية، تلك اللجة التي سقط فيها كل تلاميذ المدرسة الفرنسية في الجزائر، ذلك الجحيم.

لقد عبرت البحر للمرة الأولى جسداً وروحاً، بل عبرته جسداً من دون روح– فهناك شعور داخلي يمنعني من الإقرار بعبوره - على متن باخرة تسمى "مدينة الجزائر" "*Le Ville d'Alger*" وكان عمري حينذاك تسع عشرة سنة. كانت هذه الرحلة هي أول رحلة أقوم بها في حياتي، رحلة متعبة استغرقت أكثر من عشرين ساعة أخذ فيها مني دوار البحر مأخذه، وعند الوصول، أمضيت أسبوعاً حزيناً مليئاً بالدموع في الداخلية البائسة لثانوية لوي الكبير(*) *Loius -le - Grand*، والتي تقع في حي قدر لي أن أعيش فيه وأن لا أغادره منذ ذلك الوقت.

والواقع أنه يمكننا أن نتحدث وإلى ما لا نهاية - وقد بدأ ذلك فعلياً هنا وهناك - عما يمكن أن نسميه "تاريخ فرنسا" ونعني بذلك

(*) ثانوية *Loius-le-Grand* في باريس هي من أشهر الثانويات في فرنسا وبخاصة في مجال الفلسفة والأدب، درس فيها، وتخرج منها الكثير من الكتاب والفلاسفة والأدباء والشعراء والمفكرين الفرنسيين المعروفين، وهي تقع في جادة سان ميشيل Boulevard St-Michel .

على وجه التحديد ذلك التاريخ الذي يُدرذس في المدارس تحت عنوان: تاريخ فرنسا: تاريخ وإن كان أقرب ما يكون إلى سلوك عجيب، وإلى خرافة أو إلى الكتاب المقدس، فإنه يمثل بالنسبة للأطفال من جيلي عقيدة عميقة ليس من السهولة محوها. هكذا، ودون أن نتحدث عن الجغرافيا حيث لا كلمة عن الجزائر، لا كلمة عن تاريخها ولا عن جغرافيتها- يمكننا في الوقت ذاته أن نرسم بأعين مغمضة سواحل بروطانيا Bretagne، أو مصب نهر لاجيروند La Gironde. كما يفترض أننا نعرف جملة وتفصيلاً، بل إننا نحفظ عن ظهر قلب أسماء كل مراكز المقاطعات الفرنسية، وكذلك أسماء أصغر روافد السين La Seine، الرون Rhône، لالوار La Loire، أو لا ؟ارون La Garonne، نحفظ أسماء منابعها ومصباتها.

هذه الأنهار الأربعة اللامرئية فيها قوة خفية رمزية تضاهي تلك القوة المنضوية داخل التماثيل الباريسية التي تمثلها، والتي انفجرت ضاحكاً عندما اكتشفتها فيما بعد، لقد كنت أمام استحقاق دروس الجغرافيا التي تعلمتها. مع ذلك سأضع هذا جانباً، وسأكتفي ببعض الإحالات إلى الأدب.

فقد كان اكتشافي للأدب الفرنسي وولوج إلى هذا النمط الفريد في الكتابة، والذي يسمى "الأدب - الفرنسي"، بمثابة التجربة التي جعلتني أدخل عالماً لا تواصل محسوس بينه وبين العالم الذي نحيا فيه، ودون قواسم مشتركة تقريباً مع مشاهدنا الطبيعية والاجتماعية على حد سواء.

على أن هذا اللاتواصل أفضى إلى لا تواصل آخر، وتحول بموجب ذلك إلى كاشف مضاعف للأسرار، فهو يظهر دونما أدنى

شك في المسافة التي تفصل دائماً الثقافة الأدبية - بمعنى النظر إلى "الأدبيانية" "Littéralité" وكأنها نوع من المعالجة للغة، للمعنى وللمرجعية - عن الثقافة غير الأدبية، حتى وإن كان هذا الفصل لا يعود دائماً إلى ما هو "خالص وبسيط". لكن، وبصرف النظر عن هذا التنافر الأساس، وهذه التراتبية الشاملة، فإن أي فطام دون تحفظ سيقوم، في هذه الحالة، بتقسيم أكثر جدية يفصل الثقافة الفرنسية - تاريخها، مؤلفاتها، قوالبها، تقديسها للأموات، الطرق الخاصة بتناقلها واحتفالاتها، "أحياءها الراقية" الجميلة، أسماء مؤلفيها وناشريها - عن الثقافة الخاصة "بفرنسيي الجزائر". فدخول جنة الأدب الفرنسي يكون عادة عبر فقدان نبرته الخاصة، إلا أنني، وفيما أعتقد، لم أفقد نبرتي، لم أفقد نبرتي التي تميّز "فرنسيي الجزائر". فنبرة الصوت مثلاً تبدو أكثر تجلياً في بعض المواقف العملية أو "البراغماتية (الانفعال أو الصخب في المحيط العائلي أو الوسط المألوف، وغالباً ما يكون ذلك في جلسات خاصة وليس في جلسات عامة، هذه الخاصية تمثل في الواقع مقياساً على درجة لا بأس بها من المقبولية بالنسبة للتجربة المتعلقة بذلك التميّز الغريب والعابر) مع ذلك فقد راودني دائماً حلم أن لا أبقي في كتاباتي على أي أثر "لفرنسيتي الجزائرية"، علماً أنني ما زلت أعتقد، وإلى حين البرهنة على عكس ذلك، أنه لا يمكننا أن نستشف عند القراءة، والقراءة فقط، أنني أنتمي إلى "فرنسيي الجزائر" ما لم أكشف ذلك تلقائياً وصراحة. على أنه من الواضح أن حاجة ما إلى ذلك التغيير الحذر جعلني أبقي على نوع من المنعكس الشرطي المكتسب، نعم أنا لست فخوراً بذلك، ولا أنوي أن أجعل منه مذهباً، لكن هذا هو

واقع الحال: فالنبرة، أيّ نبرة خاصة باللغة الفرنسية، هي قبل كل شيء تلك النبرة الجنوبية méridional، والتي تبدو متعارضة مع الوقار الفكري للكلمة العامة (العمومية). (هذا غير جائز أليس كذلك؟ إنني أقر بذلك). إنها تبدو متعارضة، بالحري، مع ما يميز الكلمة الشعرية (أو الشاعرة). ذلك أننا عندما نستمع مثلاً إلى روني شار(*) René Char وهو يقرأ بنفسه جوامع كلامه Aphorismes الحكمية بنبرة تبدو لي هزيلة وفاحشة في الوقت ذاته، فإننا نعتقد أن خيانة حقيقية معيّنة لم تكن لتدمر إعجاباً يعود لمرحلة الشباب.

إن النبرة في الغالب عبارة عن التحام جسدي مع اللغة بعامة، فهي تحيل إلى ما هو أبعد من التنبير في حد ذاته Accentuation، هذا في الوقت الذي يقوم فيه المبحث الخاص بالبحث في أعراضها باكتساح الكتابة. إنه لأمر جائر، أعلم ذلك، لكن ليس في الإمكان أكثر مما كان، فعبر هذا التاريخ الذي أنا بصدد روايته، وبالرغم مما أجاهر به أو أدرسه في بعض الأحيان، فقد قمت، وأنا أقر

(*) روني شار Char (René) (1907-1988): شاعر فرنسي شهير، بدأ رومانسياً وانتهى سوريالياً. إذ، وبالرغم من استلهامه لكل التراث الكلاسياني الفرنسي، إلا أنه، وبعد أن التقى لوي أراغون Louis Aragon وأندري بروتون André Breton في باريس انضم نهائياً إلى المجموعة السوريالية الضيّقة، وبدأ ينشر في مجلتها الشهيرة **الثورة السوريالية** *Révolution Surréaliste* يتميّز شعر روني شار بالغرائبية اللفظية، وبالدعوة إلى استغلال مكامن التفجر والقوة داخل الإنسان. من أهم مؤلفاته التي لا تعد ولا تحصى:

الترسانة (المتفجرة) (1929) *Arsenal*

أرتين (1930) *Artine*

العاري الضائع (1971) *Le Nu perdu*

(المترجم)

بذلك علناً، بإدغام تعصب (لا تسامح) شائن، لكنه شرس، مؤداه أن لا أقبل، بل أن لا أقدر من الفرنسية، الفرنسية كلغة، إلا ما هو فرنسي محض. فكما هي الحال في كل المجالات، وعبر كل الأشكال الممكنة، فإنني لم أتوقف عن أن أضع موضع تساؤل ذلك الباعث على " الصفاء " (أو الطهر) "Pureté" (إن الحركة الأولى فيما نسميه "التفكيك" "La déconstruction" هو هذا المدخل "النقدي" لذلك الشيء العجيب، أو لبديهية الصفاء (أو الطهر)، أو نحو التفسخ التحليلي لتطهير سيفضي مباشرة إلى بساطة لا متفسخة للأصل).

بيد أنني لن أجرؤ على التصريح مرة أخرى بهذه الضرورة المكرهة المتعلقة بصفاء اللغة إلا في تلك الحدود التي أكون متأكداً منها تمام التأكد، فهذه الضرورة ليست لا إيتيقية، ولا سياسية، ولا اجتماعية، وهي لا تلهمني أي حكم، فكل ما تفعله تجاهي هو تعريضي للمعاناة عندما يظهر فجأة أن أحدنا، وقد أكون أنا بالطبع، قد سقط من القائمة. وأعاني أكثر عندما أوخذ على حين غرة، أو عندما أمسك ذاتي بذاتي متلبساً "بالجرم المشهود" (ها أنذا أعود مرة أخرى للحديث عن الجرم والجريمة بالرغم مما أنكرته من قبل)، علماً أن هذه الضرورة تظل في غاية المرونة حتى أنها تقوم أحياناً بمجاوزة وجهة النظر النحوية، بل إنها لتهمل "الأسلوب" ذاته لتخضع في نهاية المطاف لقاعدة سرية، حتى تتمكن من "الإنصات" إلى ذلك الهمس الملح في داخلي والذي أعمل على فهمه حتى ولو تعلق الأمر بحالات يكون فيها هو الوحيد - إلى جانب البديهية - الذي في إمكانه أن يحدد وجهته النهائية: فالإرادة

الأخيرة للغة هي، في المحصلة، بمثابة قانون للغة لا يفوض أمره إلا لي كما لو كنت وريثه الأخير، وآخر المدافعين والمبدعين باللغة الفرنسية (وأنا هنا بدأت تصلني الاحتجاجات من كل حدب وصوب: أي نعم، أي نعم، إذن!). كما لو أنني أيضاً كنت أبحث عن لعب هذا الدور، أو أن أصير متطابقاً مع ذلك البطل - الشهيد - الرائد - المشرع - الخارج - عن - القانون، والذي لا يهاب شيئا في سبيل إظهار أن هذه الإرادة الأخيرة، بصفائها الآخر والحازم، لا علاقة لها بكل ما يمكن أن يكون معطى (المصطلحات المستخدمة، قواعد اللغة، اللياقة الأسلوبية والشعرية) - والذي لن يتردد في مخالفة كل هذه التعليمات، وإحراق كل ما يعترض سبيله ليرتمي في أحضان اللغة، هذه اللغة بالذات، ذلك أنني كنت، وما زلت، أجد في اللغة ملاذي الأخير.

بيد أن هذا الملاذ ملاذ فضفاض، فهو يتسع للغتي بالقدر ذاته الذي يتسع للغة الآخر، لذا فأنا لا أخفي هنا أنني ألجأ إليها وأنا أحمل في داخلي ما يشبه النية المبيّتة في أن أعمل ما وسعني حتى لا ألجأ إليها بتاتاً: هنا وليس هناك، هناك وليس هنا. وهذا ليس إرضاءً لأي معطى كان، ولكن استكشافاً لآفاق القادم من الأيام، كما يجعلني في وضع يمكنني أن أتحدث فيه عن الميراث وعن الإرادة الأخيرة.

إذن فأنا هنا أعترف بصفاء غير خالص، إنه كل شيء عدا أن يكون صافياً نقياً، فهل هذا "الصفاء" غير الخالص هو الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أسر بمذاقه، مذاق تم تبنيه خصيصاً عند بعض المنطوقات. وهكذا، فقد تعبت كثيراً وأنا أحاول التدرب على

الكلام بصوت خافت وبخاصة خلال فترات تدريسي، وهو أمر كان من الصعوبة بمكان بالنسبة لي أنا أحد أبناء " الأقدام السوداء[*] Pied noir، وتصبح الصعوبة مضاعفة عندما يتعلق الأمر بعائلتي على وجه الخصوص. على أن هذا الكلام بصوت خافت (أو منخفض) يؤدي في المقابل إلى ظهور نوع من التحفظ حول ما تم التحفظ عليه، قد يكون من الصعب لجم غضبه فيما بعد، غضب عابر قد ينحرف إلى كارثة في كل لحظة، وفي كل خطوة أيضاً قد يحدث ما هو أسوأ.

وعندما أقول أطلق عنان غضبه، فإنما أعني غضب العقل والصوت، وهو ما كنت قد تحدثت عنه بإسهاب في أماكن أخرى، تماماً كما لو أن عاملاً ماهراً يسهر على آلة توزيع الطوابع تملكه وهم أن يقوم بإدارة جهاز معيّن، وأن يقوم بقياس زمن العبور على المعبر!.

والصحيح أنه كان من الأفيد لي أن أتحدث عن سد مخصص لمياه غير صالحة للملاحة، مع خطر انفلات مياهه الدائم وطوفانها على كل ما يحيط بها. لقد كنت أنا من أوائل من راودهم الخوف من صوتي، صوتي أنا، كما لو أنه لم يكن صوتي، بل كنت من أوائل من احتجوا عليه، إن لم أقل كرهوه.

وإذا ما كنت، وما زلت أصاب بقشعريرة تهز كياني كلما فكرت

(*) الأقدام السوداء: :Pied noir نعت يطلق على الأوروبيين واليهود وغيرهم، الذين ولدوا في الجزائر طيلة فترة الاحتلال (1830-1962) وهو يحمل في مخيال فرنسيي الحاضرة Métropole معنى قدحياً تجاه هؤلاء.

(المترجم)

فيما سأقوله، فإن ذلك يرجع بالأساس إلى نبرة صوتي وليس إلى شيء أساس آخر بالمرة. من هنا، ودونما مبرر مقنع، فإن ما أحاول أن أطبع الآخرين به، أو أعطيهم أو أعيرهم إياه تماماً كما لو أن الأمر يتعلق بي، وبالآخر كما لو أنه يتعلق بي، هو هذه النبرة الصوتية، وكأن الأمر كله يقع في مستوى الأداء الصوتي.

قبل هذا وذاك، فإن ما يعطي ميزة لهذه النبرة الصوتية هو الإيقاع، حتى أنني أعتقد بأنني سأقوم بلعب كل أوراقي في هذا المستوى، أي مستوى الإيقاع. لكن، لا بد أن نبدأ من البداية، أي من البحث في ذلك الأصل الذي لا يمكن حصره لإيقاع معيَّن، حيث سألعب كل أوراقي، كما قلت، وهي أوراق قابلة للربح وللخسارة في آن واحد.

ذلك أنني أعي تمام الوعي بأن ما ينبغي أن أبيّنه هنا كمدخل أولاني، كنت قد صادفته في المدرسة أيضاً، وهو ذلك الذوق المتسم بالغلو لكل ما يتعلق بصفاء اللغة ونقائها، وقس على ذلك كل ما هو قابل للغلو، حتى ليمكننا الحديث عن نزعة مغالية لا شفاء منها، نزعة أصبح يغلب عليها طابع الشمولية. لا شك أنني أبالغ، أليس كذلك، أنا أبالغ دائماً، مع ذلك أقول إنه، وكما هي الحال، بالنسبة للأمراض التي نصاب بها في المدارس، فإن العقل السليم والأطباء ينصحوننا بأن نأخذ احتياطاتنا حتى لا تتفاقم هذه الأمراض وتصبح وباءً لا يمكن التحكم فيه، لذا ينبغي تهيئة أرضية مناسبة لذلك. إذ ما من انتفاضة تقع ضد تخصص معيّن، وما من نقد موجه للمؤسسة المدرسية يمكنهما أن يفضيا إلى ما أتصوره أنا دائماً وكأنه "الإرادة الأخيرة"، أو اللغة الأخيرة في الكلمة الأخيرة من

الإرادة الأخيرة.

فالحديث بفرنسية جيّدة، بفرنسية خالصة، حتى ونحن ننتقدها، هو في الواقع أحسن ألف مرة من التحالف معها أو سكناها، وليكن مثالنا على ذلك تلك النزعة المتسمة بالغلو التي تقول حيناً ("إنه أكثر الفرنسيين فرنسية")، وحيناً آخر "إنه فرنسي أصيل" وهو آخر لم يستوجبه صفاء الصفائيين ذاته، ولا داعي لأن أقول بأنني كنت، وما زلت ضد الصفاء والصفائية بعامة، وضد متطرفي الجزائر بالطبع"). هذه النزعة المتطرفة المكرهة والمفرطة في تطرفها كنت قد صادفتها، دونما شك في المدرسة، نعم وجدتها في المدارس الفرنسية المختلفة التي أمضيت فيها كل حياتي.(ولنأخذ هذا المثال بيّنة على ذلك: هل من المصادفة أن أغلب المؤسسات التي آوتني، ومن ضمنها تلك التابعة لما يسمى التعليم العالي، تسمى في الغالب "مدارس" "Ecoles" وليس "جامعات" "Universités").

على أنني، وكما اوحيت بذلك من قبل، فإن هذا الاختلال موجود في أعماق ذاتي أنا أكثر مما هو موجود في المدرسة.ويبدو أن ذلك قد بدأ بالنسبة لي قبل المرحلة التحضيرية ما يستوجب إبحاري في أغوار ذاتي القديمة والبعيدة، وهذا ما لست مستعداً لفعله الآن. مع ذلك فأنا بحاجة للعودة إلى هذه المرحلة ما قبل المدرسية لأتبيّن أسباب نزعة الغلو (أو المغالاتية) Hyperbolisme هذه التي غزت حياتي وعملي على حد سواء. ولا داعي للتذكير هنا بأن أي تقدم يحصل إنما يعزى "للتفكيك"، فإرسال برقية مثلاً كافٍ لإحداث هذا "الغلو" (وهي كلمة لأفلاطون) الذي سيقوم باستحضار كل شيء، ومن ذلك إعادة تأويل *Khôra* والتي تعني

العبور إلى ما وراء معبر الخير ذاته أو العبور من **الواحد** الواحدي إلى ما بعد الكائن (الكينونة) (*hyperbolé...epekeina tes ousias*) أو الإفراط إلى أقصى درجات الإفراط وبخاصة إذا ما علمنا أن غلواً من هذا القبيل كان قد دفع بأحد صغار اليهود الفرنسيين في الجزائر إلى الشعور، بل إلى أن يتحدث علناً مستحضراً جنيالوجيا الأصل من بداياتها وحتى قبل وجود الأصل أصلاً، وبأقصى درجات التطرف والراديكالية، بأنه أكثر وأقل فرنسية، ولكن أيضاً أكثر وأقل يهودية من كل الفرنسيين، من كل اليهود ومن كل يهود فرنسا، وهنا أكثر أو أقل أيضاً من كل المغاربيين الفرانكوفونيين.

وبمثل ما أنظر بجدية تامة إلى التفاهة والخيلاء الكامنين في تلك الادعاءات الصبيانية من مثل ("أنا آخر اليهود" التي جاءت في كتاب *Circonfession*)، فإنني سأحمل على عاتقي مخاطرة أن أكون نزيهاً مع مخاطبيّ ومع ذاتي ذاتها، مع ذلك الآخر الموجود بداخلي والذي ينظر إلى الأشياء بهذا المنظار، بهذا المنظار وليس بمنظار آخر، فأنا لم أتعود على قول الحقيقة، يمكنك أن تثق فيما أقوله.

بيد أن كل هذا عبارة عن حركة دائرية، فالمسار ما انفك يتسارع، والأشياء تتغير بوتيرة أسرع من وتيرة تعاقب الأجيال. هذا الإسراع دام قرناً كاملاً بالنسبة لكل الجزائريين، وأقل من قرن بالنسبة ليهود الجزائر. لذا كان يتوجب إجراء تعديل يخص البعد التعاقبي لهذه الحكاية بكل عناية، إلا أنه ينبغي أن نبيّن أيضاً أن هناك لحظات فريدة (أو مميّزة) تحدث في مجرى تلك الحكاية ذاتها. فالحرب بالنسبة لكل الظواهر التي هي على هذه الشاكلة، هي عامل تسريع لما هو على درجة عالية من التعجل أصلاً. وهكذا،

وكما هي الحال، بالنسبة لمراحل المواطنة الممنوحة منها أو المسلوبة لمراحل تقدم العلم والتقنية، والجراحة، والطب بعامة، فإن الحرب تبقى عاملاً " مسرعاً " في منتهى الأهمية. ففي أوج الحرب، وبعد نزول الحلفاء في إفريقيا الشمالية في نوفمبر 1942، شهدنا تأسيس ما يشبه عاصمة ثقافية لفرنسا في المنفى في الجزائر، وكانت مظاهر ذلك بادية للعيان: حراك ثقافي، حضور الكثير من الكتاب "المشاهير"، تكاثر المجلات ومحاولات النشر. هذا الوضع أدى أيضاً إلى تبلور رؤية أكثر تمثيلية للأدب الجزائري باللسان الفرنسي كما ينعت، سواء تعلق الأمر بكتاب منحدرين من أصول أوروبية (وعلى رأسهم كامو Camus) أم كانوا من أصول جزائرية، لأن الطفرة التي وقعت سمحت بظهورهم. بعد ذلك بسنوات، وإذ كنت ما زلت مبهوراً بأنوار لحظة العز تلك، فإذا بي أبدو وكأنه تم اصطيادي من قبل الأدب والفلسفة الفرنسيين، من كليهما معاً، أو من كل منهما على حده. عنوان هذا الاصطياد سهام من الحديد أو الخشب، أجسام خارقة من الكلمات المشتهاة، الرهيبة، العصية على الإمساك بها حتى وهي تخترق ذاتي، وجُمل كان ينبغي احتيازها وترويضها في آن واحد، بل وحتى مداهنتها إن تطلب الأمر ذلك، أي أن نحيطها بطريقة لاهية، حارقة (فالصوفان Amadou ليس ببعيد) بل وحتى مدمرة، وبتعبير آخر أن نسجل، نحوّل، نقطع، نحزّ، نصهر، ننصهر في النار، كل ذلك لكي نعيد ذاتنا إلى ذاتنا الغائبة بطريقة مغايرة.

على كل علينا أن نكون منصفين هنا، فالمداهنة في مثل هذه الحالة كانت بالنسبة لي حلماً دون شك، وهي مازالت حلماً، وأي

حلم! ليس بغرض إحداث ضرر باللغة (فليس هناك ما احترمه وأحبه أكثر من احترامي وحبي للغة)، وليس بغرض القدح فيها أو أن أحرجها بحركة من الحركات الارتدادية التي تحولت إلى موضوعي الرئيس هنا (وهذا دون أن أتمكن صراحة من تحديد مكمن الغل في داخلي، أو من سينتقم ممن. وقبل هذا وذاك هل إن اللغة ذاتها لا تحمل، منذ الأزل، هذه الغيرة المنتقمة، وليس بغرض أن أسيء إليها، فهذه اللغة بقواعدها، وتراكيبها، وبمعجم مفرداتها، وبمجمل القواعد والمعايير التي تشكل قانونها، وبذلك الشموخ الذي يطبعها والذي يشكل قانوناً بحد ذاته، يمكنها أن نحلم، لكن الذي كان يفترض أن تحلمه حلم مزعج لأن محوره قد يكون ما يمكن أن يحدث لها. من هنا الرغبة في استحضارها هنا والقيام بإدخال تغيير ما عليها، وهي التي بقيت سليمة كما هي ودائماً محترَمة ومحترِمة، هائمة في ثنايا كلماتها وفيما يترتب عنها من التزامات ضاغطة عليها وذلك عبر إدخال شيء هو من العمق الباطني بمكان عليها، كما ذكرنا سابقاً، بحيث يصبح الاحتجاج نفسه متعذراً بالنسبة إليها، لأن أي احتجاج سيكون معناه الاحتجاج على انبثاقها ذاته، وأنه لن يمكنها الاعتراض إلا عبر بعض العوارض الشائنة والمخجلة. هذا الشيء هو من العمق الباطني بمكان إذن، لدرجة أنه يمكنه أن يستمتع، كما هي الحال بالنسبة إليها (أي اللغة)، بتلاشيها المؤدي إلى انوجادها، وكما هي الحال أيضاً، بالنسبة للواحد العائد، العائد إلى بيته، في اللحظة ذاتها التي يأتي فيها ضيف غير متفهم، قادم جديد دون أصل يمكن تعيينه، حيث يقوم باستحضار تلك اللغة إليه مرغماً إياها على مباشرة طقوس الكلام التي تزخر بها اللغة بلغته

هو، وبمعنى آخر عليها بالتحدث مع ذاتها بذاتها. على أنه بالنسبة لهذا الضيف وبحسبه، فإن اللغة تحمل في جسدها أرشيفاً لا يمحى يؤرخ لهذا الحدث: حدث قد لا يحيل إلى ما هو صبياني بالضرورة، فقد يكون عبارة عن وشم، أو شكلاً فخماً مختفياً تحت الثياب حيث يختلط الدم بالحبر فينتج ألواناً لا حصر لها(*). إن الأرشيف يجسد طقسا لا يمكن لأي كان أن يفشي سره، ولا يمكن لأي كان أن يتملكه حتى ولو كنت أنا المتمرس بلعبة السر.

مع ذلك فإنه ما زال علي أن أحلم، وأن "أتوق إلى

(*) في الوقت الذي كنت أراجع فيه مسودة الكتاب، إذا بي أشاهد على التلفزيون فيلماً يابانيا لا أذكر اسمه في الحقيقة، يروي قصة فنان ماهر في الوشم. وكانت تحفته الرائعة تتمثل في فهم وشم غريب يغطي به ظهر زوجته وهو يمارس طقوس الحب على ظهرها، بما أنه فهم بأن هذا كان شرطاً مسبقاً "*Dactus*". وهكذا نشاهده وهو يقوم بغرس لِحاظ ريشته الجارح في ظهر زوجته التي كانت منبطحة على بطنها، إلا أنها أدارت إليه وجهاً متضرّعاً متألماً، ما جعلها تهجره فيما بعد نتيجة هذا العنف. لكنها فيما بعد أرسلت إليه ابنه الذي حملت به منه لكي يأخذ عنه كيف يصبح معلماً ماهراً في فن الوشم دون أن يعرف بأنه ابنه. ومنذ ذلك الحين لم يعد بمقدور الأب الفنان أن ينجز تحفته الرائعة على ظهر امرأة إلا يجعلها تنام فوق ابنه، ابن حسن المحيا وكأنه الإله. ومع أنه لم يعرف بعد بأنه ابنه، إلا أنه يناديه باسمه مع كل لحظة ألم، وهذا النداء هو دعوة له لكي يعطي المرأة الشابة أقصى درجات اللذة كتعويض لها عن شدة الألم الذي تلاقيه، وهو ما يدفعنا للتساؤل أصلاً عن موقعها في هذه العملية: هل هي مجرد دعامة أم الموضوع ذاته، أم هي مسند للرسم، أم هي انفعال هذه التحفة الفنية؟. مع ذلك فإن النهاية كانت فظيعة لن أحدثكم عنها، فقط أقول إن المرأة لوحدها بقيت صامتة، ما يعني أن الأثر أو التحفة هي التي بقيت، ومن وراء كل ذلك ذاكرة ملأى بالوعود. هذه التحفة التي تحملها، وإن كانت لا تستطيع رؤيتها إلا بطريقة غير مباشرة، وعبر المرآة، إلا أنها ستبقى ما بقيت المرأة ذاتها على الأقل لبعض الوقت، ولم لا لفترة أبدية لا تنتهي.

الماضي"، حيث كان على أن أدعو ذلك استقلال الجزائر وفق منظوري الخاص، لكن وكما قلت ذلك سابقاً ما هذه إلا مجرد حلقة من العموميات، وبرنامج مشترك بين كل التلاميذ الخاضعين والمشكلين وفق بيداغوجية اللغة الفرنسية هذه.

في داخل هذا الكل المحروم هو ذاته من نماذج للمطابقة يمكن ولوجها بسهولة، يمكننا أن نميّز كلاً فرعياً (أو ثانوياً) كنت أنتمي إليه لدرجة معينة. أقول لدرجة معيّنة فقط، ذلك أنه، ومتى تعلق الأمر بالثقافة، باللغة، أو بالكتابة، فإن مفهوم الكل أو الطبقة لا يمكنه أن يوفر الفرصة لوجود حجة أنموذجية بسيطة للإقصاء، للتضمين، أو للانتماء. إذن، شبه الكل الفرعي هذا، كان يخص بالتحديد ما كان يعرف في تلك المرحلة "باليهود الأهالي"، فهم وإن كانوا مواطنين فرنسيين منذ 1870 وحتى ظهور القوانين الاستثنائية لعام 1940، إلا أنهم لم يحققوا هويتهم، أو لم يتطابقوا مع محيطهم بشكل مرض، سواء أكان ذلك بمعنى "التطابق مع الذات" أو كان بمعنى "التطابق مع الآخر"، فهم لا يمكنهم التطابق مع نماذج ومعايير وقيم مشكلة داخل بنية غريبة عنهم، لأنها فرنسية، ومن الحاضرة، ومسيحية وكاثوليكية. ففي داخل المحيط الذي كنت أعيش فيه كنا دائماً نقول: "الكاثوليك"، وكنا نعني "بالكاثوليك" كل الفرنسيين غير اليهود، حتى وإن كانوا أحياناً من "البروتستانت" أو من "الأرثوذوكس"، فكلمة "كاثوليكي" تعني كل ما هو غير يهودي، غير بربري (أمازيغي) وغير عربي. من هنا فإنه لم يكن في مقدور أولئك الشباب اليهود الأهالي أن يتطابقوا لا مع "الكاثوليك"، ولا مع العرب، ولا مع البربر (الأمازيغ) حيث نجد أن جيلهم الحالي لا يتكلم لغتهم أصلاً. أما الجيلان السابقان

أي جيل الأجداد فكان لا يزال يتحدث العربية، أو على الأقل نوعاً معيناً من العربية.

هكذا، وبالإضافة إلى كونهم غرباء عن منابع الثقافة الفرنسية مع أنها تعد الثقافة الوحيدة التي اكتسبوها، ولغة تعليمهم المدرسي الوحيدة، بل لغتهم الوحيدة أصلاً، وبالاضافة إلى أنهم غرباء أيضاً، وبطريقة راديكالية، وفي غالبيتهم، عن الثقافة العربية أو البربرية (الأمازيغية)، فإن هؤلاء الشباب "اليهود الأهالي" ظلوا في غالبيتهم غرباء عن الثقافة اليهودية ذاتها: وإذا كان بعضهم يرى هذه المسألة على أنها اغتراب عن الذات، بل كارثة حقيقية، فإن بعضهم الآخر يراها بمثابة فرصة مفارقة. هذه كل معالم اللاثقافة الراديكالية التي ما انفكت تلاحقني إلى الآن، فكلما اعتقدت أنني تخلصت منها أجد نفسي منغمساً فيها حتى أخمص القدمين.

وهنا لا بد أن أشير إلى أنه كان هناك شيء هو أقرب ما يكون إلى الممنوع قد فرض قانونه غير المكتوب. مع منحهم، أي اليهودَ، حق المواطنة الفرنسية، وبدء عملية الإدماج كما يقال، والتثاقف، والمزايدات المحمومة لجهة "فرنسة" الثقافة اليهودية، والتي كانت بمثابة مظهر من مظاهر التبرجز، كل هذه الخطوات كانت من الاهتياج (أو حتى الجنون) واللامبالاة بحيث أفقدت هذه الثقافة قدرتها على الإلهام، وأصبحت على شفا حفرة من **الاختناق** والذي تتمثل مظاهره في: حالة موت مرئية، توقف عملية التنفس، الغثيان، توقف نبضات القلب. بيد أن ما وقع، إذا ما أخذ في بعده التعاقبي، لم يكن سوى عارض من عوارض المرض ذاته، ذلك أنه، وفي اللحظة الموالية، عادت نبضات القلب للخفقان بشكل أكبر، كما لو

أن "المجموعة" ذاتها قد خدرت، أو تسمّمت، أو ثُمّلت بمظاهر الثروة الجديدة. وهناك آلاف العلامات (المؤشرات) تظهر ذلك، فكأن ذاكرتها، أي المجموعة، قد تم إفراغها وتحويلها. لقد ضاقت حتى كادت أن تسلم روحها، ولكن لتندمج في أخرى على عجل، اللهم إلا إذا كان قد تم اجتذاب هذه الحركة من قبل، الأمر الذي سيعرض هذه المجموعة اليهودية، وبشكل مسبق، إلى نزع ملكيتها الكولونيالية (الاستعمارية). ومع ذلك فأنا لا أملك القدرة المباشرة والتلقائية على وضع الفرضية الأخيرة موضع الاختبار. ذلك أنني أحمل صورة سّلبية، إن أمكنني قول ذلك، عن ذلك الإرث المتمثل في فقدان الذاكرة (أو النسيان)، والذي لم أملك بصدده الشجاعة، أو القوة، أو وسائل المقاومة والصمود، ولأن الأمر، في الحقيقة، كان يستوجب وجود مؤرخ أصيل للقيام بهذا العمل، وهو ما أشعر بأنني غير مؤهل للقيام به، وهذا يعود للأسباب الذاتية التي ذكرتها.

هذا القصور، هذه الذاكرة المعاقة هي محور الشكوى التي أسعى لتقديمها هنا، إنها محل اعتراضي وتظلمي، ذلك أنني وخلال مرحلة المراهقة، وفي الوقت الذي بدأت فيه إدراك ما يدور حولي، كان هذا الإرث قد تصلب، بل كان قد نخر أغلبية السلوكات الطقوسية مبهمة الدلالة بالنسبة لغالبية يهود الجزائر. والحال أنني أصبحت، في ذلك الوقت، في مواجهة ديانة يهودية Judaïsme عمادها "العلامات (أو المظاهر) الخارجية". إلا انه لم يكن لدى ما يمكنني من مناهضة ذلك، وصدقني لقد كنت أثور ضد ما كنت أرى فيه مجرد إيماءات، وبخاصة أيام الأعياد في الكنيس Synagogues، وكنت أحتد فقط على ما كنت أعتقد أنه عدوى مسيحية ماكرة

عنوانها: أهمية الاعتقاد الجواني، تفضيل القصد عند تقييم الأفعال، القلب، الروح، الحذر من كل ما يحيل إلى المباشرة أو الفعل الموضوعي المستند إلى آليانية الجسد، ومن ثمة فضح كل ما يحيل إلى النفاق أو الفريسية Pharisaïsme.

في الواقع لن أؤكد كثيرًا على هذه الأشياء المعروفة التي عدت للحديث عنها، لكن إشارتي إليها هنا هو لتبيان أنني لم أكن الوحيد الذي إصابته هذه "العدوى" المسيحية. فالسلوكات الاجتماعية والدينية والشعائر اليهودية ذاتها، وحتى الحساسة منها، عادة ما كانت تتعرض للتأثير سابق الذكر. فقد أصبحنا، وأعني بذلك اليهود، نقلد الكنائس، وصار الحاخامات Rabbins يلبسون جبة سوداء، وقواس الكنيس Chemasch صار يلبس مقرنة نابليونية، وصارت الـ bar mitzva تُدعَي "المشاركة" أو "التشارك"، والختان صار اسمه "التعميد". لكن الأمور تبدلت بعض الشيء فيما بعد، فأنا أتحدث هنا عن فترة الثلاثينيات، الأربعينيات والخمسينيات... إلخ.

أما فيما يخص اللغة بالمعنى الفضفاض للكلمة، فإنه لن يكون في مقدورنا حتى الرجوع إلى بعض البدائل المألوفة، أو بعض الألسن الخاصة بالطائفة اليهودية، أو إلى نوع من اللغة قليلة الاستعمال (أو محالة على التقاعد) والتي، وبرغم ذلك، تمكنت من أن توفر، كالبِدية(*) Y I ddish مثلاً، عنصراً ضامناً للحميمية، وأن تؤمن " ملجأ آمناً " ضد لغة الثقافة الرسمية، بحيث تحولت إلى نصير مساعد في كل الحالات السوسيو- سيمانطقية المختلفة. في

(*) البِدّية: YI ddish: لغة (أو بالأحرى لسان) عبرية مطعمة بالألمانية كان يستخدمها يهود أوروبا الوسطى والشرقية وحتى يهود روسيا أيضاً.

حين نجد أن المُلتنة[*] Ladino لم تكن مستعملة في الجزائر التي عرفتها وبخاصة في المدن الكبيرة كالجزائر العاصمة حيث كانت الطائفة اليهودية موجودة بشكل مكثف[**] وبكلمة واحدة نقول إنها طائفة "مفككة، متخندقة" أو متحصنة. ثم لنتصور حينئذ تلك الرغبة الجامحة لإزالة حدث من هذا القبيل، أو على الأقل التقليل منه،

(*) مُلتنة Ladino أو Ladin: إحدى مجموعات اللغات الرومانية من أصل لاتيني، وهي مستعملة في سويسرا والنمسا الغربية وإيطاليا الجنوبية.

(**) لنفترض أن هذه التأملات المتواضعة تقترح علينا تقديم مثال يقترب من أن يكون مشتركاً في مجمله مع ملف دراسة عامة قادمة، ولنفترض أيضاً أن هذه الدراسة هي من نوع الدراسات التاريخية أو السوسيو-انثروبولوجية. في حين أن هذه الفرضيات تبقى مجرد فرضيات لا أكثر ولا أقل. بل إنه يمكننا أن نعلن وجود صنافة أو تصنيفوية عامة بحيث سيكون عنوانها الأكثر طموحاً كالتالي: **أحادية الضيف اللغوية**، يهود القرن العشرين، اللغة الأم (الأصلية) ولغة الآخر، بين ضفتي المتوسط. وانطلاقاً من ذلك الذي ميّز تلك المدونة الطويلة، فإنني أشعر وكأن الضفة الأخرى لليهود قد صارت في مرمى بصري على ساحل آخر مغاير للمتوسط. وفي أماكن ما تزال تبدو لي إلى الآن غريبة، غريبة بطريقة تختلف عن فرنسا المسيحية.

فأغلب الوجوه المعروفة والأكثر شهرة هي جميعها أوروبية المولد، ومن اليهود "الاشكيناز ashkénas"، ما يوحي بظهور مشاكل في الأفق وأولها هل هناك مشاهير من "السفرديم Sépharade" يوجدون على قائمة المشاهير اليهود بعامة؟ أضف إلى ذلك أن التنوع في مستوى الوجوه اليهودية الاشكينازية من أصول أوروبية يستوجب صنافة متشابكة (والتي حاولت دراستها في ملتقى حول الصنافة والتي أتمنى أن أخصها بدراسة لاحقاً). وقبل أن أنطق ببنت كلمة، مهما تكن ناقصة وخارج أي تناسب حول بعض المغامرات فقط من بين مغامرات كثيرة كانت ضخمة وفردية (من كافكا Kafka إلى لڤيناس، من شولام Scholem إلى أدورنو، من بنيامين Benjamin، إلى سيلان Célan، إلى أرندت). مع ذلك لنهتم بالدرجة الأولى بحالة فرانز روزانزفيغ Franz Rosenzweig. ونقول بالدرجة الأولى لأن هذا الأخير اقترح بلورة نظرة عامة

موازنته أو حتى إنكاره ولم لا؟ لكن سواء حققت هذه الرغبة أم لا، فإن الصدمة ستقع لا محالة بكل تأثيراتها اللا محدودة المهدّمة والبانية في الوقت ذاته.

هذه الطائفة قد تم تفكيكها أو بعثرتها ثلاث مرات، لأننا نتسرع دائماً لاستجلاب الممنوعات:

فيما يخص هذا المشكل بالذات، حيث قام بنشر ما يمكن أن أسميه قضية اليهود المتعلقة بلغاتهم الأجنبية. وقد كانت طريقته في طرق هذه القضية طريقة "نظرية" وشكلانية. وعلى كل، وسواء انخرطنا في تأويلاته أم لا، فإن هذه التأويلات تمنحنا ما يشبه الطوبوغرافيا المنهجية التي لا تقدر بثمن.

1 -**روزانزفيغ** RosenzWeig: بداية لنقل إن هذا "الشعب الخالد" (أو لنستخدم التعبير الشائع وهو شعب الله المختار) وعلى خلاف كل الشعوب الأخرى "لا يبدأ بالبحث في مسألة الأهلية"، لأن "الأب الذي انحدرت منه إسرائيل كان أباً مهاجراً". (نجمة الخلاص *l'étoile de la rédemption*, tr, Fr, A. Derczanski et I. L. Schlegel, Seuil, 1982, P. 354. فقد كان محروماً من "مأوى خاص" يخلد إليه "للنوم" عدا تلك الأرض الطاهرة المقدسة، والتي تعود ملكيتها للإله وحده لا غير (ص355) وبخاصة إذا ما علمنا أنه لا يملك لغة خاصة به وإنما كان يملك فقط لغة المضيِّف: "إن الشعب الخالد فقد لغته الخاصة ("*Seine eigne Sprach Verloren hat*")، "فقد كان، وحيثما حل، يتكلم لغة مقدراته الخارجية، لغة الشعب الذي يقطن عنده بوصفه ضيفاً *Bei dem es etwa Zu Gaste Wohnt*)، (*das Gastrecht*)، بل يعيش منزويا في تلك المستوطنات المغلقة [*in geschlossener Siedlung*، وواضح هنا أن الأمر يتعلق في معناه الواسع بأماكن للسكنى أو للتجمع]، فهو يتحدث لغة الشعب الذي استقبله والذي استمد منه قوة المسيرة [*Siedeln* هذه الإقامة]، فهو لا يمتلك هذه اللغة لجهة قرابة الدم القائمة بينهما، بل لأنها تبقى دائماً بالنسبة إليه، لغة المهاجرين القادمين من كل الأصقاع، حيث نجد أن "الاسبانية - المتهودة *Judéo-Espagnol*" ["*dzudezma*"] البلقان، و"*tatsch*" [وهوالاسم الآخر للبدية أو *Yaddish*] في أوروبا الشرقية، هما الحالتان الأكثر بروزاً في مرحلتنا الراهنة. وعليه إذا كانت الشعوب الأخرى برمتها يتم الكشف عن هويتها عبر

1- لقد فصلت في البداية عن اللغة والثقافة العربية أو البربرية (الأمازيغية) (والمغاربية تحديداً).

2- لقد فصلت أيضاً عن اللغة وعن الثقافة الفرنسية، إن لم نقل الأوروبية برمتها، والتي صارت بالنسبة إليها مجرد قطب أو حاضرة بعيدة وغير متجانسة مع تاريخها.

لغتها الخاصة، وأن اللغة لا تجف في أفواههم إلا متى كفوا عن أن يكونوا شعباً بالمعنى الأصيل للكلمة، فإن هذا ما لا ينطبق على الشعب اليهودي الذي لا يجد تمظهره الهُوياتي في اللغة التي يتكلمها، (*Wİchst das Jüdisech Volk* " *mit den* ") *Sprachen die es Spricht, nie mechr ganz Zusammen* وبعد حكمه الذي أطلقه، والذي يستحق أكثر من وقفة شك وقلق، تماماً كما هو مقاله حول الدم، حيث نجدهما يتشابهان حد التطابق مع بعض الشعارات المضادة أو المعادية للسامية antisémites، وإن كنت أعتقد أن ذلك تم بطريقة غير مقصودة مع قسط وافر من اللامبالاة. إذن بعد ذلك خلص روزانزفيغ إلى أن "هذه اللغة...ليست لغته (*nicht die eigene ist*): إنها لَيست لغته الخاصة)":
"فحتى وهو يتكلم لغة المضيف الذي يستقبله (*die Sprache des Gatsvolks*) فإننا نجد هناك تعابير، أو على الأقل، انتقاء لبعض التعابير المميّزة، مما هو متداول أصلاً، فيعمد إلى تدويرات لغوية خاصة به، وبعث إحساس خاص يعيد ما هو جميل وما هو قبيح في اللغة موضوع الحديث. كل هذا يشير إلى أن هذه اللغة... هي فعلاً ليست لغته" (ص356).
والأمر ذاته فيما يخص القول بوجود أرض مقدسة (فهي أرضه، ولكنها في مطلق الأحوال ليست قابلة للتملك (أو الاحتياز)، فهي مؤجرة فقط، وهي عبارة عن هبة من الإله المالك الشرعي الوحيد للأرض)، والشيء ذاته بالنسبة للقول بوجود لغة مقدسة، فهي مقدسة فقط بالنسبة إليه إلا لأنه لا "يتكلمها"، وذلك ليس لأنها وبخاصة في مجال الصلاة (فماهيته: "هي أنه لا يمكنه فعل أي شيء سوى الصلاة ")، لا تقوم بلعب أي دور سوى الإقرار أو التأكيد: "إقرار" (*Z eug nis*) مفاده أن "حياته اللغوية تشعر بأنها موجودة دائماً في أرض غريبة، وأن وطنه اللغوي الخاص (*Seine eigentliche Sprachheimat*) يوجد في مكان آخر، مكان مجاله اللغة المقدسة المتعذر بلوغها عن طريق

3 - وأخيراً، وربما أولاً، فقد قطعت عن الذاكرة اليهودية ذاتها، وعن ذلك التاريخ وتلك اللغة التي كان يفترض أن يكوّنا تاريخها ولغتها في آن واحد، ولكنهما لم يعودا كذلك، وبخاصة عندما ينظر للأمر في بعده الأنموذجي بالنسبة لغالبية أعضائها، أي الطائفة، وبطريقة "حية" وباطنية بما فيه الكفاية.

اللغة اليومية (العادية)...".

[هذا، وقد أعود للتذكير في مكان آخر (في كتاب: **عيون اللغة: الهاوية والبركان** *Les Yeux de la langue: l'abîme et le Volcan* الذي سيصدر لاحقاً) بالرسالة التي كتبها شولام لروزا نزفيغ كتقدمة في يوم احتفاله بمولده في ديسمبر 1962 ("رسالة لم يسبق نشرها من غير شوم شولام إلى فرانز روزا نزفيغ عنوانها: حول لغتنا: إسرار "هذا النص الرائع نشره وترجمه ستيفان موزيس *Stéphane Mosès* في **أرشيف العلوم الاجتماعية للديانات** *Archives des Sciences Sociales des religions* (1) جويلية سبتمبر 1985، ص 83-84، هذه الترجمة التي ذكرناها للتو، كانت متبوعة بمقال ثمين لستيفان موزيس يحمل عنوان: "اللغة والدنيوة عند غيرشوم شولام *Langage et sécularisatin* *chez Gesehom Scholem*" هذا الإسرار المتمحور حول لغتنا (*Bekennt nis-ber undere Sprache*) يخرج إلى السطح قلقاً وحصراً أمام الحمم البركانية التي قد تلقي بها يوماً عملية التحديث أو الدنيوة وبخاصة "تحديث "(*Aktualisierung*) اللغة العربية المقدسة: "هذا البلد عبارة عن بركان كل داخله يغلي بالكلام (*Das land ist ein Vulkan. Esbeherberget die Sprache[...]*) بل إن هناك خطر محدق آخر أفتك من (*Unheimlicher*) خطر الأمة العربية الذي هو المحصلة الضرورية للمؤسسة الصهيونية بكاملها وهو التساؤل: اين وصلت عملية تحديث اللغة العبرية؟ أليست هذه اللغة المقدسة التي نرضع حليبها لأبنائنا هي الهاوية (أو جهنم) (*Abgrund*) التي لا بد وأنها ستنفتح يوماً على مصراعيها؟ [...] أليس هناك أي خطر في أن نرى يوماً القوة الدينية لهذه اللغة وقد ارتدت بعنف ضد من يتحدثون بها [...] أما بالنسبة إلينا، نحن الذين مازلنا نعيش داخل اللغة فحالنا، بالنسبة لغالبيتنا، كحال ذلك الأعمى الذي يسير فوق الهاوية دونما أدنى تقدير للخطر الماحق المحدق به. لكن عندما نسترجع

هذا الانفصال (الفصل) الثلاثي جاء في الوقت الذي كنا فيه في حاجة إلى الاستمرار والتواصل، وذلك عبر وهم ما يزال شبحه وفظاعته موضوع بحثنا إلى الآن، كما لو أننا قمنا بتعيين "الطائفة" نفسها في "البلد" نفسه، في الجمهورية "نفسها"، في ثلاث مقاطعات في "الدولة- الأمة" نفسها. إذن أين نحن؟ ومن هو ذلك

نظرنا، نحن وأحفادنا معنا، لنتجنب الوقوع في أعماق هذه الهاوية لأنه ما من واحد في مقدوره أن يعرف إذا ما كانت تضحية من سيسقطون إلى قاع الهاوية ستكون كافية لردمها".

ومن أعمق أعماق هذه الهاوية التي تواترت صورتها خمس مرات على الأقل في هذه الرسالة المكونة من صفحتين، طلع علينا صوت هو أقرب ما يكون إلى صوت الأشباح. وعليه، فإن منطق التسلط لا يمكنه التحالف مع علم اللغة المهتم بالاسم. فماهية الكلام، وبالمحصلة ماهية اللغة (*Sprache*) تحدد وفق ما يرى شولام، وكذا بنيامين وهيدغر، انطلاقاً من القدسية والتعيين في الوقت ذاته، أي من كلمتين مركبتين: " الكلام هو اسم في نهاية المطاف (*Sprache ist Namen*). ففي داخل الاسم تتوارى قوة الكلام، وفي داخله أيضاً يحبس اللّجة التي يضمها بين جنباته (*In Namen ist die Macht der Sprache beschlossen, ist ihr Abgrund Versigelt*) " .

منذ تضييعنا الأسماء المقدسة، ومنذ اختفائهم الظاهر، فإن طيفهم ما انفك يعود ليخلط بمقالنا التعيس أصلاً، "فاللغة التي نتحدثها، هي بالتأكيد لغة بدائية (مختلفة) وشبه استبهامية (*Wir Freilich Sprechen eine gespentische sprache*) والأسماء ما زالت تلازم جملنا في حين أن الكتاب والصحفيين مازالوا يلعبون على تواتراتها. إما تكاسلاً في الاعتقاد بذلك، أو لمحاولة إقناع الإله بأن كل هذا لا أهمية له (*eshabe nichts Zu bedenten*) وهذا بالرغم من أن هذه اللغة المحقرة والشبحية تبدو وكأنها تكلمنا بين الفينة والأخرى، ذلك أن الأسماء لها حياتها الخاصة. وإنه لو لم تكن تتوفر على هذه الحياة، فإن اللعنة كانت ستحل دون شك على أبنائنا الذين كانوا سيجدون أنفسهم عرضة لليأس والمستقبل الفارغ " لذا، فإن شولام يسمي خطر هذا الفقدان في أكثر من موقع **بالحكم وبنهاية العالم**، لأن الحقيقة نفسها تنبجس عن حكم التاريخ

الذي يمكننا أن نتطابق معه حتى نتمكن من تأكيد هويتنا الخاصة، ومن أن نحكي تاريخنا الخاص، لكن لمن نحكي هذا التاريخ، أو هذه الحكاية أصلاً؟ من هنا ينبغي أن نكوّن ذواتنا بذواتنا، وأن نسعى لكي نتمكن من اختراع أنموذجنا دون متلقى محدد، فالمتلقي لا يمكن تحديده بشكل دقيق، ولكنه يفترض دائماً افتراضاً بحيث

الأخير.

إذن كيف "نموقع" - والحال هذه، المقال الخاص، بالمتلقي الأول لهذه الرسالة الغريبة؟ ثم ما هو منطلق الإدراك لدى روزاترفيغ الذي كان كتابه **نجمة الخلاص** (1921) *L'Etoile de la Rédemption* قد ظهر في الوقت الذي لم يتأخر فيه شولام في الاختلاف مع كاتبه، والذي ينظر إليه في الواقع بما هو "أحد أهم إبداعات الفكر الديني اليهودي في القرن الحالي". (**من برلين إلى القدس** *De Berlin à Jérusalem*، ترجمة س. بولاك S. Bollack، ألبين ميشيل Albin Michel، 1984 ص199- 200)؟

وانطلاقا من المعالم الأساسية التي تمكنا من تسجيلها هنا، فإننا نميّز ملاحظتين في حدهما الأدنى: مهما تكن راديكالية هذا اللاتملك (أو الحرمان) للغة وعموميته، والذي ينسب إلى "الشعب اليهودي"، فإن روزانزفيغ قام بتلطيفه عبر صيغ ثلاث إن أمكننا قول ذلك. هذه الصيغ تقوم بتعيين ثلاث صيغ لإعادة التملك التي كانت ممنوعة على "يهود - الجزائر . الفرنسيين" الذين يتحدث عنهم هنا، وأنا كذلك:

ا- إن روزانزفيغ ذكرنا بأنه مازال في مقدور اليهودي تملك (أو احتياز) لغة المضيف والتعلق بها كما لو كانت لغته الخاصة في بلد هو بلده، بلد ينبغي أن لا ينظر إليه وكأنه "مستوطنة"، مستوطنة شيدها الاستعمار والغزو العسكري. وهنا أظهر روزانزفيغ تعلقه باللغة الألمانية، أي لغة بلده، دون أدنى تحفظ، وقد حمل ذلك التعلق على أوجهه المختلفة حتى بلغ ذروته عبر ترجمته للكتاب المقدس (التوراة). وكأنه كان في منافسة شريفة ومرعبة مع لوثر Luther نفسه، إنه "*Gastgeschenk*"، شكر وعهد من الضيف بما تلقاه من واجب الضيافة، كما قال شولام في إحدى المرات: لقد كان ذلك في القدس، في إسرائيل قبل ثلاثين سنة، أي في سنة 1961. فقد توجه شولام

يصبح مثالاً لأي متلقي في كل الحالات الممكنة. لكن خطاطات هذه القرينة كانت في هذه الحالة من الندرة، من العتمة، ومن اللاتحقق بحيث أصبحت كلمة " إبداع " ذاتها يكاد مبالغ فيها. وإذا ما كنت قد وصفت هذه المقدمات بطريقة جيدة، فإنني أستطيع أن أتساءل إذ ذاك: ما هي الأحادية اللغوية، "أحاديتي" اللغوية؟

بالحديث إلى بوبر Buber، معاون روزانزفيغ في ترجمة الكتاب المقدس، من خلال اللعب على هذه الكلمة *Gastgeschenk* حيث أظهر إعجاباً واضحاً بذلك الزوج "اليهودي . الألماني" بعيداً عن التهكم والريبة القائمة.

هذا الـ *Gastgeschenk*، المتمثل في الترجمة، ترجمة نص مقدس كما يضيف شولام، "ستكون بالأحرى . وأقول هذا دونما إزعاج يذكر . شاهدة القبر Pierre Tombale لعلاقة تم تدميرها في كارثة مروعه. فاليهود الذين قمت لأجلهم بهذه الترجمة قد ماتوا، أما من نجا من هذه الكارثة من أبنائهم فهم لا يقرأون اللغة الألمانية أصلاً [...] والتناقض، الذي كان موجوداً بين اللغة التي كانت متداولة في سنة 1925 واللغة المستخدمة في ترجمتك لم يتم تخفيفه خلال هذه السنوات الخمس والثلاثين الأخرى، هذا إذا لم نقل بأنه اشتد أكثر من ذي قبل".

نعم ترجمة للكتاب المقدس وكأنها شاهدة القبر، شاهدة قبر أخذت مكان عطاء من المضيف أو تقدمه للضيافة (*Gastgeschenk*)، من فن جنائزي للحصول على بركات لغة معيّنة، رمس لقصيدة قيلت لتخليد ذكرى لغة معطاة، رمس ينفتح على رموس أخرى ومنها الرمس المخصص للكتاب المقدس، والرمس المخصص للإنجيليين (وروزانزفيغ نفسه كان على مقربة من أن يصبح مسيحياً)، عطاء يتمثل في قصيدة هي بمثابة قربان لذلك الرمس الذي قد يتحول إلى قبر تذكاري، من يدري. لذا، فسيكون من معالم الحظ السعيد إحياء ذكرى أحادية الآخر اللغوية هناك! فياله من مزار، ويالها من بصمة تنطبع بها لغات عدة.

ومع أن شولام يدفع عنه بلطف شبهة القبر التذكاري، إلا أن الصحيح أيضاً هو أنه، وفي نهاية هذا العنوان العجيب، كان يتوجب عليه أن يستحضر هولدرلين Hölderlin، الذي يمنح بدوره تلك القصيدة الرائعة باللغة الألمانية، خلاصاً

إن تعلقي بالفرنسية يأخذ أشكالاً أقدّر في بعض الأحيان أنا ذاتي بأنها أشكال "عصابية". فأنا أشعر بالضياع خارج اللغة الفرنسية. في حين أن اللغات الأخرى، كتلك التي أستطيع أن أقرأها ولكن بصعوبة بالغة، أو تلك التي أحاول فك رموزها، أو أن أتكلمها أحياناً، فإنها لغات لا أستطيع أن أسكنها أبداً. ذلك أن مقر

يستحق الذكر على ما أعتقد، فالوعد أو النداء المنبعث منها مازال يسمع إلى الآن: "أما فيما يتعلق باستخدام الألمان لترجمتك من الآن فصاعداً، فبماذا يمكننا أن نتكهن؟ ذلك أن ما جرى في حياة الألمان أكبر بكثير من كل ما يكمن أن يتكهن به هولدرلين وهو يستعد لذلك:

Und nicht übel ist, einiges
Verloren gehet, und von der rede
Verhullet der lebendige laut

(ليس هناك من خير، إذا ما كان هناك شيء/ يكابد هلاك النفس والمقال/ فبماذا صوت حي في طريقه إلى الاحتجاب).
هذا الصوت الحي الذي حاولت أن تجعله يصدح داخل اللغة الألمانية قد احتجب. فهل هناك من يود سماعه؟"
هذه المسألة جعلت الكلمات الأخيرة لمداخلة القدس ترتعش (غيرشوم شولام: اتمام ترجمة الكتاب المقدس من طرف مارتن بوبر.(C F, Gershom.
G Schlem: Lachèvement de la traduction de la Bible par Martin Buber
مداخلة ألقيت في القدس في فيفري 1961 وجمعت في:
المسيحية اليهودية: محاولة حول روحـانيـة اليـهـوديـة *Le Messianisme Juif: Essais Sur la Spiritualité du Judaïsme*
ترجمة برنار دو بيبي مع بعض التحوير البسيط، ص 441-447
Calmann-Lévy, 1974, tr,Bernard Dupuy
ب - يحاول روزانزفيغ أن يذكرنا أيضاً بأن اللغات "اليهودية" هي الاسبانية المتهودة والبِدّية، في حال **التحدث بهما فعلاً.**
جـ- وأخيراً فإن روزانزفيغ يذكرنا باللغة المقدسة، لغة الصلاة التي تبقى لغة

"السكنى" يعني، بالنسبة لي، البداية الحقيقية لإمكانية القول وسأبقى كذلك. إنني وأنا خارج اللغة الفرنسية لا أشعر فحسب بأنني تائه تماماً، خائر القوى ومذموم، ولكن أشعر أيضاً بأنني عمل على تشريف أو خدمة كل الألسن المتكلمة، وبكلمة واحدة، أنا أكتب بطريقة "أجمل" وأنا أشحذ همة المقاومة الموجودة في فرنسيتي،

خاصة بالشعب اليهودي. لكن عندما يستخدمها، يقرأها ويفهما، على الأقل في جانبها الطقوسي أو الشعائري. على أنه، وحتى نبقى في مستوى وجهة النظر الصنافية المفضلة، فإن الحالة النمطية التي عليها اليهودي الفرانكو - مغاربي، والتي أحاول أن أصفها هنا، هي تلك الحالة التي، وكما ينبغي أن نبيّن، قد تصل فيها عملية الاستملاك حد خسران هذه الملاذات الثلاثة:

أ - الفرنسية "الأصيلة Authentique" (إنه يتوفر على فرنسية تبدو أنها فرنسية (أصلية) ما في ذلك شك، لكنها فرنسية لا تنتمي إلى فرنسية الحاضرة، بل إنها فرنسية **مستوطن** - وهذا ما لم يكن عليه الوضع بالنسبة لألمانية روزانزفيغ وكل اليهود الأشكيناز في أوروبا).

ب - **الاسبانية . المتهودة (وهي لم تعد مستعملة).**

جـ - اللغة المقدسة التي حتى وإن بقيت تستخدم في الصلاة في بعض الأحيان، إلا أنها لم تكن تدرس بطريقة أصيلة وشائعة، ومن ثمة لم تكن مفهومة إلا في حالات استثنائية محدودة.

2 - **أرندت Arendt**: إن ايتيقا اللغة الخاصة بهذا اليهودي الألماني الذي هو روزانزفيغ لم تكن كذلك بالنسبة ليهودية ألمانية تدعى آنا أرندت، إذ لا ملاذ آخر بالنسبة إليها، لا في اللغة المقدسة، ولا في لسان من الألسن الجديدة مثل البدية، ولكن تعلق راسخ بلغة أم (أصلية) واحدة هي اللغة الألمانية. (في خطوة محدودة ليس هنا مجال التوسع في مناقشتها، يمكننا القول أن تجربة أرندت تشبه إلى حد ما تجربة أدورنو في هذا المجال.

ففي مداخلته ?Was ist deutsch [التي كانت في البداية في سنة 1965، عبارة عن مقابلة إذاعية: ترجمة M.Jimenez et E. Kaufholz في **أشكال نقدية** *Modèles Critiques Payot, 1984*, p. 220 Sp]. أوضح هذا الأخير بشكل لا لبس فيه أنه تحمل مكرهاً ضغط اللغة الانجليزية والغربة اللغوية . غربة قطعها

و"الصفاء" الذي يطبعها، فرنسيتي التي أتكلمها بصوت عالٍ، ومقاومتها المستبسلة للترجمة: على كل اللغات بما في ذلك الفرنسية المغايرة لفرنسيتي.

ليس لأنني أكتب ما لا يمكن ترجمته، فلا شيء لا يمكن ترجمته، فقط علينا أن نمنحه الوقت اللازم لاستهلاك أو انتشار

بنفسه على خلاف أرندت، من خلال عودته لألمانيا حيث أمكنه أن يجد لغته التي ما انفك يردد بأنها لغة "ميتافيزيقية" من الطراز الرفيع" ص229).
وعلى كل نحن نعرف التصريحات الشهيرة لأرندت حول هذا الموضوع في "ماذا بقي إذن؟ بقيت اللغة الأم (الأصلية) فقط" (*Was bleibt? Es bleibt die Muttersprache)*، وهي مقابلة أجريت مع غونتر غوس Günter Gaus وتم بثها عبر التلفزيون الألماني في سنة 1964. مع التنويه بأن هذه المقابلة حصلت على جائزة ألمانية هي جائزة أدولف غريم Adolf Grimme، ثم نشرت فيما بعد في سنة 1965 في Günter Gaus, Zur person, Munich.
أما بالفرنسية فنشرت في: التقليد المخفي: اليهودي كمنبوذ *La tradition cachée, le Juif comme paria* ترجمة سيلفي كورتين. دونامي Sylvie Courtine-Denemy, Bourgeois,1987 فعندما سئلت أرندت عن تعلقها باللغة الألمانية أجابت بطريقة مستسلمة، ساذجة، وعالمة في الوقت ذاته: هل أمكن لها أن تقاوم المهجر الأمريكي، وأن تصمد أمام تعليمها هناك ومنشوراتها بالأنجلو-أمريكية Anglo-Américains "حتى في أحلك أوقاتها"؟ فتجيب بكلمة واحدة ودونما أدنى تردد: لقد فعلت ذلك دائماً. لقد اختصر الجواب في كلمة واحدة *immer*. لقد أبقت دائماً على ذلك التعلق الثابت وتلك الألفة المطلقة. فـ "دائماً" هي في الواقع تحديد لزمن اللغة لأننا قد نقرأ الكثير بين أحرف تلك الكلمة. فقد نقرأ أن ما يسمى باللغة الأم (الأصلية) ليس فقط أنها دائماً هنا، فـ "دائماً هنا"، أو "دائماً موجودة هنا" و"دائماً أيضاً هي هنا". بل قد تعني أيضاً أن هناك تجربة خاصة بـ "دائماً" وبـ "هو ذاته" أو "الهو المتماهي مع ذاته"، كما هو كذلك. وهناك حيث لا توجد إلا اللغة، أو على الأقل حيث توجد آثار تنطبع على اللغة كما لو أن تجربة "دائما" والوفاء للآخر، أو الوفاء للذات ذاتها يفترض الوفاء السرمدي للغة، فاليمين الزور ذاته، والكذب

مقال صارم يكون في مستوى متناسب مع المقال الأصلي. مع ذلك فإن كلمة "غير قابل للترجمة تبقى - وينبغي أن تبقى كما يوحي بذلك قانوني - بمثابة الاقتصاد الشعري للألسن، وهو ما يهمني أصلاً، والذي سألقى حتفي من دونه، وما يهمني أنا بشكل ذاتي، أي من ذاتي لذاتي، هناك حيث تخفق " كثرة " شكلية معطاة دائماً

والنكث بالعهد كلها تفترض الإيمان باللغة، إذ يمكنني أن أكذب دون تخيل أو الدعوة إلى تخيل لغة معيّنة دون الأخذ باصطلاحاتها وتعابيرها. بعد أن أجابت بـ "دائماً" بكل بساطة تماماً كما لو أن الجواب كان كافياً ومكتملاً، قامت ارندت بإضافة بعض الكلمات كرد منها على سؤال ملح حول ما جرى لها في سكناها للغة "في أحلك الظروف التي مرت بها"، أي في زمن النازية، الأكثر اندفاعاً وهيجاناً (المندفع لذاته، والمندفع كالنارية، ذلك أن هناك **دائماً** زمن للنارية قبل وبعد النازية):

"فقد كنت أقول دائما: ما العمل؟ فاللغة الألمانية على كل، ليست هي التي أصبحت مجنونة! هذا من جهة، ومن جهة ثانية لا شيء يمكنه تعويض اللغة الأم (الأصلية) (الترجمة الفرنسية، 240) ويبدو أن الجملتين البسيطتين والعفويتين السابقتين تتتابعان بشكل طبيعي، دون أن يتوفر لكاتبتهما إمكانية أن ترى تلك الهوة السحيقة التي انفتحت تحتها، تحتها أو بين جنباتها.

صحيح لا يمكننا العودة إلى كل الثنيات التي تركتها هذه المنطوقات الكلاسية تماماً كما قال روسو :Rousseau "إن عناية الأم لا تستجدي إطلاقاً"، فاللغة الأم (الأصلية) كما تؤكد أرندت **لا يمكن تعويضها أبداً**. مع ذلك كيف يمكننا أن نفكر مجتمعين تلك الخاصية المفترضة التي تميّز الأم وهي الوحدانية. الفردانية. المتعذر استبدالها (استبهام أبدي تم اعتماده من قبل الجملة الثانية) وتلك الجملة الغريبة حول جنون مفترض للغة، وهو هذيان تم النظر إليه، ولكن صرف عنه النظر منذ الجملة الأولى؟.

بيد أن أرندت، وفي معرض تساؤلها وتعجبها، أنكرت كما لو أن ذلك كان شيئا عبثياً، أن لغة ما يمكن أن تتحول إلى لغة مجنونة ("كنت أقول: ما العمل؟ فليست اللغة الألمانية، على كل حال، هي التي أصبحت مجنونة!") فما الذي قامت به؟ إنها لا تنكر، بل إنها تنفي ذلك، إنها تبحث بشكل جلي

في استعادة الحدث الفردي فيما هو أصيل، وبمعنى آخر محاولة حمله، متى تم تسجيله، على نسيان عدده، والظل العروضي الخفي بعملية التكميم لديه. فالكلمة في مقابل الكلمة إذا ما أردنا قول ذلك، والمقطع اللفظي في مقابل مقطع لفظي آخر. إذ ذاك، وعندما نتراجع عن هذا التكافؤ الاقتصادي، والذي هو أصلاً مستحيل

عما يطمئنها مستخدمة في ذلك أسلوب التعجب كقولها مثلاً "لا يصل الأمر إلى هذا الحد!" أو "لا يمكن لأحد أن يقنعني بأن الأمر قد يصل إلى هذا الحد!". وذلك لجهة أن اللغة إذا ما أخذت في ذاتها فإن اثر التفكير سيظهر فيها، التفكير فيما يفكر فيه العقل ذاته. فهي لن تكون لا عاقلة ولا هارفة. لأن اللغة لا يمكن أن تصبح مجنونة لسبب بسيط وهو أنه لا يمكننا مداواتها أو وضعها تحت مشرح التحليل، كما لا يمكننا أن نعهد بها إلى مؤسسة من مؤسسات الطب العقلي، لذا ينبغي أن يكون الواحد منا مجنوناً أو أن نبحث عن حجة ما ليدعم عبرها جنون لغة معيّنة. وعليه يمكننا القول أن العقل السليم أوحى لأرندت بالاعتراض المنكر التالي: ليست اللغة هي التي أصبحت مجنونة على كل لأن هذا لا معنى له، إنه لأمر عجيب غريب؛ فمن سيصدقه؟ إنهم إذن أولئك الرعايا الخاضعون لهذه اللغة، بل إنهم البشر أنفسهم، فهم الذين يفقدون عقلهم: إنهم الألمان، بعض الألمان الذين، وبعد أن سيطروا على مقدرات البلد واللغة أيضاً، تحولوا إلى ما يشبه الشياطين أو الوحوش المهتاجة، مع ذلك فهم لا حكم لهم على اللغة، هذه الأخيرة هي أقدم منهم،ن وستعمر، وستبقى مستخدمة من قبل الألمان الذين لم يعودوا نازيين، بل إنها مستخدمة حتى من قبل غير الألمان. من هنا تلك النتيجة المنطقية التي مؤداها أن العقل السليم هو ذاته الذي يقوم بربط الجملة الثانية بالجملة الأولى لجهة أنه لا يمكننا استبدال اللغة الأم (الأصلية).
على أن ما يبدو بأنه لم يخطر على بال أرندت بالمرة، ما يبدو أنها توسلته، أنكرته، أو أسقطت حقه بمنتهى البساطة، هو كلمة تحيل إلى أكثر من شيء واحد:
أ- فمن جهة نقول إن لغة معينة يمكنها أن تصبح مجنونة بذاتها، بل أن تصبح جنوناً معيّناً، الجنون ذاته، موطناً للجنون أو الجنون مقنناً. إلا أن أرندت لا

التحقيق، يمكننا أن نترجم كل شيء لكن في إطار ترجمة جبانة بالمعنى الذي تحمله الكلمة "ترجمة ذاتها".

ولن أتحدث هنا عن الشعر وإنما عن العروض وما يتعلق بأوزان الشعر (النبرة والمقدار في زمن النطق).

لا شيء يمكن ترجمته بمعنى من المعاني، ولكن، بمعنى آخر

تستطيع أو لا تريد أن تفكر هذا الضلال: فلكي يتحول الناطقون بلغة معيّنة إلى "مجانين"، إلى منحرفين أو إلى أشرار سيّئين إلى أقصى درجات السوء والشرانية، فإن ذلك يعني أن اللغة نفسها ليست بمعزل عما يجري. وهكذا، فهي لابد وأنها تعرف ما الذي جعل هذا الجنون ممكناً: لأن الكائن الذي لا يتكلم، الكائن الذي لا يتكلم لغة أم (أصلية) لا يمكنه أن يصبح "مجنوناً"، منحرفاً، خبيثاً، قاتلاً، مجرماً أو شريراً. وإذا كانت اللغة بالنسبة إليها هي ليست مجرد أداة بسيطة محايدة وخارجية (وهو افتراض صائب من ارندت، فاللغة ينبغي لها أن تكون أكثر من أداة وأن تكون مغايرة لها في الوقت نفسه لتستمر "دائماً" عبر الزمن، ولتحمل ذاتها عبر تنقلاتها ومهاجرها). هذا الأمر يستوجب أيضاً أن المواطن المتكلم لهذه اللغة سيصبح مجنوناً بلغة مجنونة. حيث تفقد الكلمات معانيها المشتركة مع غيرها أو تنحرف عنها. وعليه، فإذا ما استبعدنا مسألة اللغة والكلام إلى جانب مسألة مهمة مثل النازية، واستبعدنا كذلك كل ما يمت بصلة إليها فإننا نكون، في الواقع، قد استبعدنا كل شيء يخصها.

ب- **من جهة ثانية**، وفي هذا السياق بالذات، فإنه ينبغي على هذه الأم المقصودة أو اللغة المسماة "اللغة الأم" (الأصلية) أن تصبح مجنونة، هذا إذا لم تكن مجنونة أصلاً (أو كانت مصابة بالأمة، الحُبسة أو الخرف). أوأن تحمل تبعات كلامها هي بالذات (وحدانية اللغة الأم (الأصلية) التي لا يمكن تعويضها). وهذا في الواقع، وفي أفق أكثر عمقاً، هو الأمر الذي يبدو أن أرندت لم تستحضره في صورته الواضحة، أو أنها رمقته من بعد على عجالة، لأنها لم تكن تود رؤيته، أو أنه لم يكن في مقدورها رؤيته، وهو أن هناك إمكانية لأن تكون لنا أم مجنونة، "أم وحيدة" ومجنونة، مجنونة لأن منطق الاستبهام هنا يفرض أن تكون وحيدة. وحتى لو افترضنا أن هذه الأم غير

مغاير كل شيء لا يمكن ترجمته، فالترجمة هي بمعنى من المعاني حامل المستحيل ذاته. أما بالمعنى الآخر المغاير أيضاً "فالترجمة" طبعاً، وبخاصة عند الانتقال من معنى لآخر، فإنه سيكون دائماً من السهل أن أقف صارماً أمام هذين الموقفين المغاليين والذين ما هما إلا موقف واحد في الواقع، بحيث يمكن إرجاع أحدهما إلى الآخر.

مجنونة، ألا يمكننا الحصول على أم مجنونة؟
من هنا تصبح العلاقة مع الأم هي الجنون ذاته.
هذه الفرضية المرعبة يمكن استحضارها بطرق متعددة:
أولى هذه الطرق يفضي بنا مباشرة إلى تلك المسألة الكبيرة المتعلقة بالاستبهام المخادع والمهلوس، وإلى التخيل بما هو *Phantasia*، وإلى المكان بما هو *Phantasma*. فإذا ما أردنا مثلاً، ولكي نبقى على مقربة من روسو في قوله "إن عناية الأم لا تستجدي إطلاقاً"، فإنه يمكننا أن نربط هذا الموضوع المتعلق بالتخيّل (الاستبهامي) بذلك الخاص بالشفقة. فالملكة الأولى والثانية، والأولى كما الثانية، تظهران توسعاً مشتركاً أمام التوجه التكميلي، أو بمعنى آخر أمام القدرة على التضرع، والإضافة عن طريق الاستبدال، أي استبدال ما لا يمكن استبداله بمعنى من المعاني، وكمثال استثنائي على ذلك الأم، حيث تتوفر فرصة استجداء ما لا يمكن استجداؤه. إنه ما من أمومة تظهر في مظهر يوحي بإمكانية استبدالها وذلك في أفق منطق الاستبدال أو وعيده. فالفكرة التي مؤداها، إننا على خلاف الأب، نعرف من هي الأم بشكل طبيعي منذ احتفالية الولادة (وهذا في الحقيقة استبهام قديم (وجد في مؤلفات فرويد وتحديداً في **رجل الجرذان** *L'homme aux rats*) مفاده أنه لا ينبغي علينا انتظار "الأمهات الحاملات" و"الإنجاب الموجه" لكي نطابقه بما هو كذلك، أي بما هو استبهام. ولنتذكر هنا ذلك الاسم الغريب الذي لا أعلم من أين انحدر إلينا (فولتير Voltaire يقول إن مالبرانش Malebranche هو مصدره) وهو: المخيلة *La folle du logis*.

فالأم قد تصبح مخيّلة، وعنوان الهذيان في مقصورة معيّنة، ذلك المكان المخصص للاستعاضة وحيث تأوي ذواتنا إلى مقصورة أو مكان، إلى جهة أو مكان يؤجر لها. وقد يحدث أن أماً قد تصبح مجنونة، وهو ما سيكون بالتأكيد

إذن كيف يمكننا القول، أو كيف يمكننا معرفة - بيقين يصل حد التداخل مع ذاته ذاتها - بأنه لا يمكننا مطلقاً سكنى لغة الآخر، اللغة الأخرى، علماً أنها اللغة الوحيدة التي نتكلمها، ومن أننا نتكلمها في إطار الإصرار أحادي اللغة بطريقة فيها الكثير من الغيرة والصرامة التعبيرية، دون أن نشعر مرة واحدة أننا في بيتنا، وأن تلك

لحظة رعب حقيقية، فعندما تفقد أما ما عقلها وحسها المشترك، فإن محصلة ذلك ستكون مفزعة تماما كما لو أن ملكاً معيّناً أصابه جنون. وفي كلتا الحالتين فإن ما سيصاب بالجنون حقيقة هو شيء آخر يشبه القانون أو أصل المعنى (الأب، الملك، الملكة، الأم). هذا الأمر قد يقع على شاكلة حدث معيّن، ما سيجعل منه مصدر تهديد. بعد أن يكون قد صالح جزءاً من تاريخ البيت أو السلالة. لنظام المسكن أو الملجأ الخاص، أو الـ *Casa* أو لِلدُن نفسها. هذه التجربة إذن يمكنها أن تشكل قلقاً وحصراً مثلها مثل شيء قد يحدث ولكنه قد لا يحدث، بل إنه كان من الأفضل أن لا يحدث.

مع ذلك، فإنه في مقدورنا الآن أن نذكر هذا الشيء بمعنيين أكثر راديكالية، معنيين مختلفين وغير مختلفين في الوقت ذاته عن الشيء السابق، وهكذا. 1) فمن الناحية الشكلية نجد أن الأم هي المحطة الوحيدة التي لا يمكن تلافيها، لكنها مع ذلك هي دائماً قابلة للاستعاضة أو الاستبدال، وبخاصة بما هي مكمن للغة، ما يجعل إمكانية حدوث الجنون ممكنة. 2) وبصورة أعمق نقول ما دامت هذه الإمكانية مفتوحة بما هي الجنون ذاته، الجنون الفاعل: فالأم مثلها مثل اللغة الأم (الأصلية) تفصح عن تجربة الوحدانية المطلقة التي لا يمكن فعل شيء بصددها سوى استبدالها لأنها ببساطة لا تستبدل، وترجمتها لأنها غير قابلة للترجمة. لكن، وحيث لا يمكن ترجمتها (ماذا نترجم يا ترى؟). الأم إذن هي الجنون، الأم "الوحيدة" (لنقل الأمومة، تجربة الأم، العلاقة بالأم "الوحيدة") هي دائماً جنون. بمعنى من المعاني، ومن ثمة، فهي وبما هي أم، تبقى دائماً موضع جنون مجنون. مجنونة كما هو الواحد الأوحد. مع ذلك لنُعد مفصلة ما ذكرنا: إن أي أم، أو علاقة بأم ما أو أمومة معيّنة هي دائماً وحيدة. ومن ثمة فهي دائماً جنون (فلا شيء يدفع للجنون كالوحدانية المطلقة للواحد أو للوحدة). لكن، وبما أنها وحيدة دائماً،

الحراسة الغيورة التي نقيمها حول لغته، هي ذاتها التي نقوم عبرها بإدانة السياسات القومية للسان معيّن (أنا في الواقع أقوم بهذا وذاك) ومن ثمة المطالبة بمضاعفة *Shibboleths* بما هي عبارة عن مجموعة من التحديات القائمة في أفق الترجمة، فكم من ضرائب يتوجب اقتطاعها على حدود اللغات، وكم من تحالفات تعزى إلى سفراء

فإنها دائماً قابلة فقط لأن تستبدل، أن تعاد إلى محلها الأصلي، أو أن تنوب هناك حيث لا يوجد مكان وحيد إلا لها. والاستبدال قد يكون للمكان ذاته، أي استبدال المكان بالمكان: .Khôra ذلك أن التراجيديا الكامنة في قانون الاستبدال هو الاستبدال ذاته، فهو يستبدل واحد. الوحيد بما هو بديل قابل للاستبدال.

وسواء أكان الواحد ولداً أو بنتاً، بكل ما يستتبع ذلك من اختلافات، فإننا دائماً نصنف ضمن المجانين، مجانين منحدرين من أم دائماً مجنونة لما تحمله من جنون، لكن دون أن تستطيع ممارسة جنونها الوحيد في المكان، او المرفق الذي يحيل إلى البيت الشخصي الوحيد. وكعود على بدء نقول إنها قابلة للاستبدال لأنها وحيدة.

كما ويمكننا أن نبيّن أن الوحدانية المطلقة يمكن أن تواصل أيضاً إلى الجنون مثلها مثل إمكانية الاستبدال المطلقة، أي إمكانية الاستبدال المطلقة التي تستبدل الوضع ذاته، التي تستبدل المكان، المحل، المسكن العائلي، الذات، الكائن وهو منزوٍ في بيته، والكائن المنزوي مع ذاته المتماهية.

هذا المقال المتمحور حول الحمق (أو حول كل ما هو محال) يجعلنا أكثر قرباً من طاقة للجنون قد تكون مرتبطة بمعنى ما، بماهية الضيافة، بما هي ماهية الوجود في بيتنا الخاص والذاتي، ماهية الكائن. في ذاته أو ماهيته الذاتية، بما هي كائن لدى. ذاته. لكن أيضاً بما هي ذلك الذي يطابق القانون مع اللغة الأم (الأصلية) الذي يجذرها أو يسجلها بالحد الأدنى.

"لقد كنت دائماً أقول: ما العمل؟ فليست اللغة الألمانية، على كل حال، هي التي أصبحت مجنونة، وثانيا [أقول ثانيا!] كنت أقول لا شيء يمكنه تعويض (أو استبدال) اللغة الأم (الأصلية). وعلى كل فإن ارندت، وبعد أن ذكرت ذلك الذي لا يمكن استبداله. وذلك الذي لا يمكن إنابته من اللغة الأم

لسان معين، وكم من ابداعات برسم المترجمين: أبدع بلغتك الخاصة وإذا ما استطعت أو إذا رغبت فلتستمع إلى لغتي، أبدع وإذا استطعت أو إذا ما رغبت في ذلك اجعلها مسموعة، لغتي أنا،كما لو أنها لغتك أنت، هناك حيث لم يقدر لحدث نظمها أن يحدث عندها إلا مرة واحدة، وهناك أيضاً حيث "لدُنها" والمواطنين،أبناء

(الأصلية) أضافت: "لا يمكن لأي كان أن ينسى لغته الأم (الأصلية). هذا صحيح، ولدي في الواقع الكثير من الأمثلة المحيطة بي، فالكثير من هؤلاء المحيطين بي يتحدثون اللغات الأجنبية أحسن مني بكثير، فأنا مازلت إلى الآن أتحدث بنبرة مفخمة إلى حد كبير، بل إنني وفي مواضع كثيرة لا أجد الصيغ اللسانية السليمة للتعبير عما يجيش بداخلي. إننا هنا بإزاء لغة لم يبق منها سوى صورها السلبية المتواترة تباعاً، ذلك أن الإنتاجية التي أثبتت جدواها في لغتنا الخاصة قد انقطعت فجأة تزامناً مع نسيان هذه اللغة الخاصة". وإذا ما قام مخاطب ما بمساءلة ارندت حول إذا ما كان هذا النسيان للغة الأم (الأصلية) ليس إلا "نتيجة كبت معيّن"، فسترد ارندت بالإيجاب: نعم إن نسيان اللغة الأم (الأصلية) هو فعلاً من تأثير الكبت. من هنا ربما يمكننا القول، وبمعزل عن هذه الصياغة "الارندية" "Arendienne" أن ها هنا المكان والإمكانية ذاتها لحصول كبت بامتياز. فكما نعلم فإن ارندت تعيّن أو شفيتز Auschivitz بما هو القطيعة الأساسية، المكان القاطع وحد الكبت.

"نعم لقد كونت فكرة واضحة عن تجارب فرعية وقعت لبعض الأشخاص، لذا أنت ترى أن المتفرج الحقيقي هنا هو ذلك اليوم الذي تواتر فيه الحديث إلينا عن معتقل أو شفيتز".

وهناك، على ما يبدو، طريقة أخرى لمعرفة بداهة معيّنة، ومن ثمة اعتمادها لاحقاً. فعندما يتعلق الأمر بحدث مثل حدث "أو شفيتز"، فإن من يتحدث عنه في الغالب يتحدث عنه هو نفسه من منطلق كبت. فالكلمة تبقى فضفاضة وناقصة في الوقت ذاته، مع ذلك فهي تضعنا أمام منطق معيّن، واقتصاد معيّن، وحجة أنموذجية لا علاقة لها بالذات، وبالشعور الذاتي الخالص. إنها تدفعنا إلى معالجة هذه المسائل بمعزل عن المنطق والفينومينولوجيا والشعور، وهو أمر قليل الحدوث في المحيط الأكثر عمومية للغة المعاصرة.

جلدتها عموماً؟ لذا فإن لسان حالها يقول:

يا مواطني كل البلدان، يا معشر الشعراء والمترجمين: ثوروا ضد أي نزعة وطنية! فكلما كتبت كلمة واحدة، هل تسمع كلمة واحدة أحبها وأحب أن أكتبها، ما إن أكتبها، ما إن أخط مقطعاً واحداً حتى أشعر بذلك اللحن الجميل المتعلق بهذه الأمية الجديدة

3- **لڤيناس Lévinas**: أما بالنسبة للڤيناس فإن إيتيقا اللغة هي شيء آخر، فهي ليست تلك الإيتيقا التي ذكرها روزانزفيغ، ولا تلك التي ذكرها أدورنو، ولا تلك التي ذكرتها أرندت. إنها تجربة فريدة تجربة لڤيناس ما في ذلك شك، تجربة ذلك الذي كتب وعلّم وعاش كل حياته تقريباً داخل اللغة الفرنسية، في حين بقيت اللغة الروسية، اللتوانية Lituanien (لأن لڤيناس ينحدر من أصول لتوانية)، الألمانية والعبرية لغات أخرى مألوفة لديه. وعليه، فإننا نجده، على ما أعتقد، قلما يتحدث عن مرجعية اللغة الأم (الأصلية)، بل ولا يقدم أدنى ضمانة فيما يخص ذلك، في مقابل ذلك يصرح دون مواربة أن "ماهية اللغة (الكلام) هي في جوهرها صداقة وضيافة". إذ لم يتقاعس طوال حياته من تقديم أسمى آيات الشكر والعرفان للغة الفرنسية لغته بالتبني أوالاصطفاء، اللغة الحاضنة، لغة المضيف. ففي إحدى المقابلات (في الواقع أنا أتساءل لماذا غالباً ما نتحدث عن أمور بالغة الخطورة في هذه المقابلات العمومية، وبشكل هو أقرب ما يكون إلى المفاجأة إن لم نقل العفوية؟) يتحدث لڤيناس عما يسميه أرض الأرض، "أرض هذه اللغة التي هي بالنسبة لي، اللغة الفرنسية". (في: **إيمانويل لڤيناس: من تكون؟** *Emmanuel Lévinas, Qui êtes vous? F. Poirié, Lyon, la manifacture, 1987*). أما الفرنسية المعنية هنا فهي فرنسية الأنوار الكلاسية. إن لڤيناس، وباختياره للغة لها دعامة أرضية بائنة، فإن ذلك يعني الحديث عن ألفة مضمونة، ألفة لا علاقة لها بالنسب، وليست لغة أصلية في نظره. وهكذا ففي مقابل شكه الراديكالي والأنموذجي، وحذره الذي لا يفارقه، يمكننا الحديث عن نوع من الراديكالية لدى أرندت، والمتمثلة في تعلقها بقداسة معيّنة، للأصل أو الجذر (نحن نعلم مثلاً أن لڤيناس يميّز دائماً بين مصطلحي طهارة Sainteté وقداسة Sacralité كما جاءا في اللغة العبرية علماً أنه من الصعب إدراك هذا التمييز في لغات أخرى

يتغلغل رويداً إلى داخلي، لحن لم أتمكن يوماً من مقاومته، إذ وبمجرد أن يناديني أقفز مباشرة إلى الشارع تلبية لندائه حتى ولو كان ظاهريا، فمنذ الفجر أجلس إلى طاولتي لأعمل في صمت كامل.

لكن السؤال الحاسم هنا، وبشكل خاص هو: هل من الممكن تصور أن اللغة الوحيدة التي يتكلمها هذا الأحادي اللغة، اللغة التي

وبخاصة الألمانية مثلاً). لقد بقيت أرندت في هذا المجال هيدغيرية *Heideggerienne* مع ذلك، وكما هي الحال، بالنسبة للكثير من الألمان سواءاً كانوا يهوداً أم لا، فإنها أعادت تأكيدها التمسك بلغة أم (الأصلية)، وبمعنى آخر لغة يمكننا أن نعزو إليها فضيلة الأصالة. وسواء أكانت "مكبوتة" أم لا، فإن هذه اللغة تبقى الماهية النهائية للأرض، والتأسيس الأقوى للمعنى، والملكية غير القابلة للتصرف التي نحملها مع ذواتنا في حِلنا وترحالنا.
على أن ما يقوله لڤيناس حول الفرنسية وحول تاريخها الخاص، إنما يتعلق بالدرجة الأولى بلغة الفلسفة. فاللغة التي تعود بنسبها إلى اللغة اليونانية قادرة على استقبال كل معنى يأتي من أمكنة مغايرة، بل حتى ولو كان وحياً عبرانياً. وهذه في الواقع، طريقة أخرى لقول أن اللغة، بما هي اللسان الأصلي، ليست المكان الأصلي، والذي لا يمكن تعويضه للمعنى، وهي القضية التي تتناسب بالفعل مع فكر لڤيناس المتمحور حول الرهينة Otage والإنابة Substitution.
لكن اللغة، في نهاية المطاف، هي تعبير Expression أكثر منها "ذرية" Génération أو تأسيساً Fondation: "إن التقليد الفلسفي الغربي لم يفقد ولو مرة واحدة في نظري، حقه في أن يكون صاحب الكلمة الأخيرة، فكل شيء ينبغي التعبير عنه في لغته (ضمن ميراث اللغة اليونانية) لكن لا يمكن أن نعده ضمن سياق آخر. أي التقليد الفلسفي الغربي. بمثابة المكان الذي يضم المعنى الأولي لكل الكائنات". [...] (الإيتيقا واللا نهائي) *Ethique et infini*.
إذن كيف نفهم هذا الإيعاز المتواتر من قبل لڤيناس؟ ولماذا يتوجب علينا أن نقطع بمعنى من المعاني، عن البحث في مسألة الجذر أو الأصالة المفترضة الطبيعية أو المقدسة للغة الأم (الأصلية)؟ ولكي نقطع مع وثنية التقديس فإنه ينبغي معارضتها بطهارة القانون، لكن ألا تعد هذه الخطورة أيضاً، دعوة لإزالة كل ما علق لدينا من أوهام حول الجنون الأصيل باسم طهارة القانون الأبوي

نذر نفسه للتحدث بها إلى الأبد، يمكن أن لا تكون لغته؟ كيف يمكن أن نصدق أنها ما تزال بكماء بالنسبة إليه مع أنه يسكنها، وأنها تسكن من هو أقرب منها، وأنها مازالت بعيدة، متجانسة غير قابلة للسكنى، مقفرة وخاوية، إنها مقفرة كما القفر (الصحراء) حيث ينبغي بذل الجهد، وإعادة بذل الجهد بكل ما فيه من بناء وتشييد

(لأن حضور الـ *Schekhina* هو حضور أنثوي أيضاً)؟ باسم أب غير مثبت على الأرض كما يذكرنا روزانزفيغ بذلك؟. أما لجهة ما يخص اللغة الأبوية، فإنه ينبغي علينا أن نعيد أهم ما قلناه فيما سبق عن اللغة الأم (الأصلية) وقانونها، وما بين أب وأم، فإنه يتوجب علينا أن نقر بأنهما ليسا إلا "وهمين مشروعين" احتفظ بهما إيليس*Ulysses* لإبراز خاصية الأبوة التي يمكن استبدالها وكذا عدم استبدالها في الوقت ذاته.

والحال أن هناك كتاباً بارزين لا أود الاستعجال في تسجيلهم ضمن هذا المجمل الخاص بهذه الصنافة الصغيرة وعلى رأسهم كافكا Kafka وسيلان Célan. فوقفة واحدة لا تكفي حتى لتسمية ما استجلبه هؤلاء غير الألمان للغة الألمانية (مختلفين في ذلك عن روزانزفيغ، شولام، بنيامين، أدورنو، وارندت) الذين كانوا يكتبون بالألمانية (ومختلفين أيضاً عن ل? يناس) إذ يكفي أن نتبين هذه القيمة المتحركة لنرسم عبرها مصير كل منهما: فكافكا وسيلان لم يكونا ألمانيين، والألمانية لم تكن بالنسبة إليهما لا لغة بالتبني أو الاصطفاء (والقضية كما نعلم هي أكثر تعقيداً).

ولا، على خلاف الفرنسية بالنسبة ليهود الجزائر، حيث كانت بالنسبة إليهم لغة "الكولونيالي" (أو المستعمر) أو "لغة السيد". مع ذلك يمكننا الحديث هنا عما أسماه كافكا يوماً "رضا الآباء الفضفاض": "إن الطبقة الوسطى للكلام في اللغة الألمانية ما هي إلا الرفات ذاتها، رفات لا يمكن أن تعود إلى ما يشبه الحياة إلا إذا نبشتها أياد يهودية نشطة... وهو ما يبحث عنه الكثير ممن باشروا الكتابة بالألمانية، مغادرة اليهودية بموافقة ورضا غالباً ما يكون فضفاضاً من الآباء (وكلمة "فضفاض" هي الأمر المغضب هنا حقاً) نعم، إنهم يريدون المغادرة ولكن أرجلهم الخلفية ما تزال مربوطة إلى يهودية الأب في حين أن أرجلهم الأمامية لم تجد لها أرضية صالحة بعد، حتى تحول اليأس الذي لحق

حتى نصل إلى تلك الفكرة التي تهدينا الأثر الذي يوصلنا إلى الطريق المستقيم، طريق الرجوع، الرجوع **إلى لغة أخرى كما جرت العادة؟** وعندما أقول الطريق وأثر العودة، فلأن ما يميّز طريقا معيّنة عن الانفعال العصبي أو via rupta (عن *tymon*) أو *méthods* عن *Odos* هو الإعادة، العودة، المعكوسية، التكراروية، التكرار الممكن لبيان السير. وسواء أكانت معلومة أم محصّلة، فإن السؤال الذي

بهم بعد ذلك إلى مصدر إلهام لهم".

(A Max Brod, Juin 1921, cité par Hanns Zischler, "Kafka au cinéma", Cahiers du cinéma, 1996, Di ffusion Seuil, O.Mannoni, P.165)

وما دمنا مع كافكا في مجال السينما، فلنتأمل هذه الصورة إذن: نحن في أوروبا الوسطى، لنسأل أي حبكة هذه. أي خطابة هذه، أي زواج مصلحي ذلك الذي جمع تحت مظلة اللغة الألمانية بما هي لغة أم (أصلية) ولا يمكنها بأي حال أن "تتحول إلى لغة مجنونة"، بين ألمانية آنا ارندت وألمانية كافكا. وكما لو أن الأمر يتعلق بأولئك "الذين باشروا الكتابة بالألمانية" و"غادروا اليهودية برضا من الآباء" غالباً ما يكون فضفاضاً فإن ما يربط كافكا بأرندت لا هو بضُعالة، ولا بزواج خارجي مع اللغة وإنما عنوانه: العقل أو الجنون؟.

داخل تلك الطوبولوجيا الأنموذجية، ولكن أيضاً خارجها، في ذلك المكان الذي يشكل تحدياً فيما يخص مسألة التمييز بين اليهود الاشكيناز واليهود السفارديم، حيث اشعر أنني مازلت غير قادر على بعث مقال آخر حول شعرية اللغة، أو حول حدث ضخم وأنموذجي. لذا تجدُني أجد في مؤلفات هيلان سيكسوس Hélène Cixous، المنجزة بطريقة إعجازية رائعة، تقاطعاً آخر يقوم بنسخ كل هذه الأنساب، ومن ثمة إعادة توليدها ودفعها باتجاه مستقبل لا اسم له بعد.

هذه الكاتبة الكبيرة المنتمية ليهود الجزائر السفارديم، والتي تقوم بإعادة اختراع وبعث أشياء كثيرة منها لغة والدها، لغتها الفرنسية، لغة فرنسية غريبة هي أيضاً، وبمعنى آخر، يهودية ألمانية من الاشكيناز لجهة "لغتها الأم" (الأصلية).

يتبادر إلى أذهاننا هنا هو: كيف يمكننا استشعار، استكشاف، **إتقان** هذه اللغة بغية إعادة الاختراع أو الإبداع دونما بيان سير أو خارطة طريق تماماً كما لغة الآخر؟

والحاصل أنني في حيرة من أمري، فلست أدري هل هي غطرسة أم تواضع أن أدعي بأن حديثي يدور في غالبه حول تجربتي، أو على الأقل، على ما يشبهها، وبخاصة لجهة الصعوبات التي

اعترضت طريقي. لكن قد يعترض معترض، وهو اعتراض يتضمن وجه وجاهة ما في ذلك شك، بقوله **إننا نوجد دائماً بشكل قبلي**، وأن تلك اللغة المسماة لغة أمّا (أصلية) لم تكن يوماً لغة طبيعية خالصة، ولا نقية ولا مسكونة. فكلمة **سكن** تضمر قيمة محيّرة وملتبسة في الوقت ذاته:

فنحن لا نسكن ما تعودنا على تسميته سكنا. لذا فلا سكنى ممكنة دون ذلك التباين القائم حول المنفى وحول الحنين إلى زمن انقضى. صحيح أن الأمر واضح هنا، لكن هذا يعني أن كل المنافي متكافئة. بداية نستطيع أن نقول نعم، فانطلاقاً من هذه الضفة، ومن ذلك الاشتقاق المشترك، فإن كل المغتربين يبقون فرادى. ذلك أن هذه الحقيقة تتميّز بأن لها ثنية تميّزها، هذه الحقيقة **القبلية** الشاملة لاغتراب أساس في اللغة - والتي دائما ما تكون لغة الآخر - وبالمحصلة في كل الثقافة. هذه الضرورة توجد هنا بشكل جلي، أي بشكل مميّز ومكشوف مرة أخرى، دائماً مرة أخرى للمرة الأولى، في مكان لا يمكن مقارنته. إنها وضعية تاريخية وفردية كما يحلو للبعض أن يطلق عليها، وضعية اصطلاحية يتم تحديدها وإظهارها بإرجاعها إلى ذاتها المتماهية.

- 8 -

كل هذه الكلمات مجتمعة: الحقيقة، الاغتراب، الحيازة، السكنى، التواجد داخل المسكن الخاص، الهوية الذاتية *ipseité*، مكانة الذات، القانون.. إلخ، تبقى في نظرنا كلمات استشكالية.

إنها تحمل في طياتها بصمة تلك الميتافيزيقا التي فرضت ذاتها أصلاً عبر لغة الآخر، عبر أحادية الآخر اللغوية، لذا فإن هذه المناقشة حول الأحادية اللغوية ما كان لها أن تكون شيئاً آخر سوى كتابة تفكيكية، كتابة ما انفكت تتهجم على ما يمثل ماهية هذه اللغة، لغتي الوحيدة، وعلى أفضل ما تحمله وهو ميراثها الفلسفي، الذي يعد بمثابة خزان المفاهيم التي نستخدمها ونلجأ إليها عند الحاجة، والتي كنت بحاجتها منذ قليل للتمييز بين الكليانية الترنسندنتالية أو الانطولوجية وبين التجريباتية الظاهرانية.

فلماذا نقوم بالتأشير على هذا التمييز الأخير؟ ومن بين مؤثرات مفارقة كثيرة، يوجد هذا الذي سأقوم بإعلان خطوطه الموجّهة.

هذه الملاحظة – المتقطعة re-marque التجريبية – الترنسندنتالية أو الأنطو – أنطولوجية ontico-ontologique، وهذه المطوية المنطبعة رأساً على تمفصل ملغز بين بنية شاملة ومؤشرها الاصطلاحي، سيدفعني الآن إلى إظهار العكس دون انتظار كل العلامات الأخرى.

إن القطيعة مع التقليد، والاجتثاث، وصعوبة الوصول إلى التواريخ الحقيقية، وفقدان الذاكرة، وعقبة ما لا يمكن فك رموزه، يؤدي إلى فك أشياء كثيرة من عقالها وتهييجها: الغريزة الجنيالوجية،

الرغبة اللسانية الاصطلاحية، حركة العودة الضاغطة نحو مكامن المرض، الحب المحطم للممنوع، فما أسميته قبل قليل الوشم قد أظهر الجسد العاري وهو يزخر بكل الألوان الممكنة. إن غياب أنموذج ثابت للمطابقة بالنسبة للذات - في كل أبعاده اللغوية الثقافية.. إلخ، يفضي إلى تحركات هي، بالإضافة إلى أنها توجد على حافة الانهيار، تجدها تتأرجح بين إمكانيات ثلاث منذرة بالخطر:

1- فقدان للذاكرة لا رجعة فيه يأخذ شكلَ فوضى باتولوجية (مرضيةٍ) أو تفكُّكٍ متنافٍ اسمه: الجنون.

2- ظهور سلوكات نمطية أو مقولبة Stéréotypes متجانسة ومطابقة للأنموذج الفرنسي "المتوسط" أو المهيمن، فقدان للذاكرة يأخذ شكلاً اندماجيا، وهو في النهاية نوع آخر من الجنون.

3- جنون الذاكرة وهياجها، دفقة إضافية من الوفاء، مزيد، إن لم نقل، إضافة فطرية للذاكرة لجهة توظيفها من على تخوم الإمكانين الآخرين، نحو مسارات - للكتابة، للغة، للتجربة - ستقوم بحمل هذه العوارض إلى ما هو أبعد من إعادة التشكيل البسيط لهذا الميراث المعطى، إلى ما هو أبعد من ماضٍ قائم، إلى ما هو أبعد من خرائطية بسيطة، وإلى ما هو أبعد من علم يمكن تعليمه.

إن الأمر هنا يتعلق بعوارض من نوع آخر، عوارض خاصة بآخر، آخر إذا ما أمكن قول ذلك، وهو الموضوع الذي أود أن أدلي بإفادة أخرى حوله.

إنه لأمر صعب حقاً، فهو الذي سيسمح لي بالعودة إلى مقترحيي البدئيين والمتناقضين، على ما يبدو، لكنه سيسمح لي أيضاً بإدخال فكر آخر يقوم على الإقرار أو الإعتراف، على فكرة "تظاهر

بالحقيقة" التي قد أكون ألمحت إليها في كتابي *Circonfession* من خلال أم مائتة فقدت الذاكرة، والكلمة، والقدرة على تسمية الأشياء.

مع ذلك لنعد ونحوصل هنا ما ذكرناه: إن أحادي اللغة الذي أتحدث عنه هنا يتحدث لغة معيّنة هو في الحقيقة محروم منها، إنها ليست لغته وهي الفرنسية. ولأنه حرم من كل اللغات، ولأنه لا يمكنه في الوقت ذاته الالتجاء - لا إلى العربية، ولا إلى البربرية (الأمازيغية)، ولا إلى العبرية، ولا لأية لغة من اللغات يكون أجداده قد تكلموها - ولأنه، أي هذا الأحادي اللغة، هو بشكل من الأشكال **محبوس لسانه** aphasique (ألا يمارس الكتابة لأنه فعلاً محبوس لسانه)، لذلك فقد قذف داخل الترجمة المطلقة، ترجمة لا قطب لها ولا مرجعية، لا لغة أصلية لها، بل لا لغة لها أصلاً كنقطة انطلاق أولانية. إنه لا يعرف إلا لغات الوصول إذا أردنا التبسيط، لكنها لغات، وبما أنها عبارة عن مغامرة فردية لا تمتلك القدرة على الوصول لأنها لا تعرف أساساً نقطة انطلاقها، وماذا سيكون محور حديثها، وما هو الاتجاه الذي ستسلكه، إنها لغات لا خط سير لها وبخاصة لا طريق سيار تتبعه للوصول إلى هدفها.

وبما أنه لا توجد إلا محطات خاصة بالوصول، فإنه توجد بالمقابل أحداث لا محطات وصول لها. إذن، انطلاقاً من هذه المحطات، من هذه المحطات وحدها بدأت الرغبة في الانبثاق: بدأت في الانبثاق قبل انبثاق ذاتية ذات، متماهية مع ذاتها لكي تحملها بشكل مسبق، وهنا، وبعد أن تحمل، وقبل أن تصل إلى محطة الوصول المزعومة تبدأ ثانية في الانبثاق، والانشغال بمهمة ظاهرة وهي إعادة البناء والترميم. بيد أن الحقيقة غير ذلك، لأن

هدفها هو اختراع لغة أولى بمدلول هو أقرب ما يكون إلى مفهوم موجه لترجمة هذه الذاكرة، إن لم نقر لقراءتها. لكن ترجمة ذاكرة ما لما يقع أصلاً، لما كان في يوم ما هو الممنوع. مع ذلك فقد ترك أثراً، طيفاً، ترك الجسد الشبح، العضو - الموهوم - الحساس، المؤلم، لكن الذي لا يقرأ إلا بصعوبة بالغة - بالآثار، بالعلامات، وبالندبات.

كل ذلك، كما لو أن الأمر يعني إنتاج حقيقة حول ما لم يقع مطلقاً، إذن فيم يتمثل هذا الاعتراف؟ وما هو ذلك الإثم السحيق أو ذلك الخطأ الأصلي Défaut Originaire الذي يتوجب علينا أن نباشر الكتابة انطلاقاً منه؟ إن أي اختراع هدفه البحث في جنيالوجيا ما لم يحدث لجهة أن الحدث لم يكن في الموعد، لا يترك في حقيقة الأمر، إلا آثاراً سلبية فيه هو ذاته، وبخاصة لجهة قولنا إن لم يصنع التاريخ مثل اللغة ما قبل الأولى لا يوجد فعلياً. إذ لا يمكننا أن نعده حتى مجرد تمهيد، مجرد "Foreword"، أو مجرد لغة أصلية تائهة، فكل ما يمكنه أن يكون هو أن يكون لغة محطة الوصول أو لغة المستقبل، أو جملة موعودة، أو لغة الآخر مرة أخرى، ولكنها لغة آخر تختلف عن لغة الآخر بما هي لغة السيد أو الكولون (المستعمر)، ما دام أن اللغتين معاً يمكنهما أن تتواصلا فيما بينهما، وأن تبقيا تحت السر أو أن تضعا كاحتياط، مجموعة من المتشابهات أو المتماثلات المضطربة، وهي مضطربة لأن اللبس القائم لا يمكن أن يرفع أبداً: ففي ذلك الأفق الأخروي أو المسيحي الذي لا يمكن لهذا الوعد أن يفكره - أو أن كل ما يستطيعه هو أن يفكره - فإن اللغة ما قبل الأولى يمكنها أن تتعرض

لخطر أن تتحول، أو تود أن تتحول، إلى لغة السيد، وأحياناً إلى لغة السادة الجدد. ففي كل لحظة من لحظات الكتابة أو القراءة، وفي كل لحظة من لحظات التجربة الشعرية ينبغي أن يتخذ القرار على أرضية غير متفق عليها (لا يمكن اتخاذ قرار بشأنها)، إنه غالباً ما يكون قراراً سياسياً - أو ما يخص السياسي إجمالاً - هذا الذي لا اتفاق حوله (أو الذي لا يمكن اتخاذ قرار بشأنه)، والذي هو شرط اتخاذ القرار والمسؤولية على حد سواء، يقوم بتسجيل التهديد في مستوى الحظ، والذعر في مستوى ذاتية المضيف.

وهنا قد يكون المكان الأنسب لتقديم الملاحظتين التاليتين:

الملاحظة الأولى هي ملاحظة تصنيفية أو صنافية، في حين تبدو الثانية سياسية بشكل واضح.

1- لِنُشر هنا مرة أخرى إلى ما يميّز هذه الحالة أو الوضعية عن حالة أو وضعية أولئك الفرانكو - مغاربيين، أو بمعنى أصح **الكتاب** المغاربيين الفرانكفونيين الذين يمتلكون في الواقع، مدخلاً إلى ما يسمونه لغتهم الأم (الأصلية). وقد قام الخطيبي بوصف هذه الوسيلة بطريقة أقل ما يقال فيها أنها رائعة، فتحليله قريب وبعيد في الوقت ذاته، من ذلك التحليل الذي أنا بصدد مباشرته هنا:

"ما من لغة إلا وتقترح على الفكر مجموعة من الطرق، والاتجاهات والمواقع المختلفة، وإن محاولة إبقاء كل هذه السلسلة تحت يافطة قانون الواحد الأحادي شكلت أحد أركان تاريخ الميتافيزيقا العريق، والتي يمثل الإسلام هنا مرجعيتها الثيولوجية والصوفية بامتياز. على أنه وفي هذا النص الذي يحمل عنوان [Talismano لعبد الوهاب المؤدب]، والذي يدون فيما بين

تشوه وما بين لغة مميّتة، كيف سيمكن التفكير وفق هذا التوجه الموحد (في اللغة الفرنسية)؟ أما وفق نظرتنا فسيكون السؤال:

كيف سيتم تفكير هذا الذي لا يحصى ولا يعد: أي أن نجعل من الثلاثة واحداً، ومن الواحد، ومن الأوسط، ومن الآخر فسحة فاصلة لهذا الطرس؟ "لقد ألمحت [...] إلى أن الكاتب العربي باللسان الفرنسي محجوز عليه داخل عبارة محددة، عبارة متأرجحة بين الاغتراب واللااغتراب (في كل ما يوحي به استخدام هذين المصطلحين): فهذا الكاتب لا يكتب لغته الخاصة، ولكنه ينقش اسمه المحول فقط لأنه لا يستطيع تملك أي شيء (على كل قد يتملك لغة ما)، فهو لا يملك **لا لغته المحكية الأم (الأصلية) لأنها لا تكتب أصلاً** [لا بد من الإشارة هنا إلى أنه إذا كان هذا الكاتب لا يمتلك لغته الخاصة المحكية الأم (الأصلية) لجهة أنها لا تكتب، فإنه على الأقل "يمتلكها" كلغة "محكية"، وهذه ليست هي حال يهودي الجزائر الذي نجد أن لغته المحكية الأم (الأصلية) لا تمتلك لا الوحدة، ولا العصر، ولا القربى المفترضة في لغة محكية أم (أصلية)، بما أنها هي أصلاً لغة الآخر، لغة الكولون (المستعمِر) الفرنسي غير اليهودي]، ولا اللغة العربية المكتوبة التي هي محل اغتراب، وموضوع إنابة، ولا تلك اللغة الأخرى المعلومة والتي ترمي إليه بإشارات مفادها أن يتخلص منها وأن يمحوها من ذاكرته. إنها لمعاناة لا نظير لها، يعانيها ذلك الكاتب الذي لا يستطيع أن يضطلع بمسؤوليات هذه الهوية المخدوشة في وضوح فكري ينتصب وسط هذه العبارة، وهذه النفسية"(*).

2- بالرغم مما هو ظاهر، فإن هذه الحالة أو الوضعية

(*) ا - استهلال كتاب: **في الازدواجية اللغوية**، ص 189 *Du Bilinguisme*.

الاستثنائية، بل والانموذجية بالتأكيد، لبنية شمولية، فإنها تمثل أو تعكس نوعاً من "الاغتراب" الأصلي سعى إلى تأسيس اللغة كما لو أنها هي لغة الآخر، أي كما لو أنه من المستحيل تملك اللغة. لكن هذا الأمر لا ينبغي أن يؤدي، في مجمل الأحوال، إلى شبه تحييد لهذه الاختلافات، أو إلى تجاهل أنواع الاستملاك المحددة، والتي يمكن أن تخاض معركة ضدها - انطلاقاً من جبهات مختلفة، لكن وعلى النقيض من ذلك، فإن هذا ما سيسمح بإعادة بعث الرهان السياسي حولها. فهناك حيث لا وجود لملكية طبيعية، ولا قانون ملكية بعامة، وهناك حيث يتم الاعتراف بنزع الملكية، سيكون من الممكن، بل سيصبح من الضرورة بمكان التعرف إليها أو مطابقتها - بغرض محاربتها أحياناً - بالأحداث، بالاستبهامات

"بالايديولوجيات"، "بالتيميات" وبرمزيات التملك (أو الاحتياز). إن تذكيراً من هذا القبيل يسمح بتحليل الظواهر التاريخية للتملك، وفي الوقت ذاته معالجتها معالجة سياسية، متجنّباً على وجه الخصوص، إعادة تكوين ما يمكن أن يكون قد أدى إلى تهييج هذه الاستبهامات مثل: الاعتداءات "القومية" (التي تعبّر بدرجة متفاوتة عن النزعة الطبيعانية، أو التجانس الذاتي أحادي الثقافة. وبما أن الزمن ما قبل الأول للغة ما قبل الأصلية لا يوجد، فقد وجب اختراعه، فهو إيعاز أو إخطار من قبل كتابة أخرى، لكن عندما يكتب ينبغي أن يكتب في داخل اللغات إن أمكن قول ذلك. إذ ينبغي استدعاء الكتابة إلى داخل اللغة المعطاة، أما فيما يخصني، فإن اللغة التي رافقتني منذ مولدي وسترافقني حتى مماتي هي الفرنسية.وللحقيق أقول، إنني لا أجد ما أقوله هنا، بل إنني لم أجد

دائماً ما أقوله: فهل كان اختياري هذا جيّداً أم أنه كان سيّئاً؟

كل ما يمكنني قوله هو أنه كان كذلك وإلى الأبد.

إن هذا الحظ المُعتم، حظي أنا، هو في الواقع نعمة لست أدري أية قوة غابرة ينبغي أن أشكرها عليه، لأنها جعلت دائماً من خطوة مباركتي لهذا القدر أكثر سهولة، جعلتنا أكثر سهولة، أكثر سهولة حتى من خطوة لعن هذا القدر ذاته، وعندما أعرف يوماً لمن أقدم هذا الشكر إذ ذاك، وإذ ذاك فقط يمكنني أن أموت بسلام، فما أفعله لحد الساعة وبخاصة عندما أكتب، يشبه إلى حد كبير تلك اللعبة المعروفة بالاستغماية Colin - Maillard، حيث يقوم ذلك الذي يكتب، طبعاً ذلك الذي يكتب بيده حتى وهو يستعين بآلة معيّنة، بمد يده في وضعية هي أقرب ما تكون إلى وضعية الأعمى في محاولة منه لِلَمس ذلك - أو تلك - الذي يمكن أن يشكره على ذلك العطاء المتمثل في اللغة، ليشكره حتى على تلك الكلمات التي يقول إنه مستعد لتقديم شكره بها، ومن ثمة أن يطلب الصفح أيضاً. هذا في الوقت الذي نجد فيه أن اليد الأخرى تواصل البحث، وبشكل حذر للغاية، فإن يد أعمى آخر تسعى لحمايته من السقوط، سقوط مبكر قد يجعل الرأس في موضع خطر، وبكلمة واحدة حمايته من التسرع، لذا، فقد ذكرت، ومنذ مدة طويلة أنه يفضل أن نخط مخطوطاتنا باليدين معاً حتى أسجل بذلك كمجنون كامل الأهلية.

لكن تلك الحميمية المشوشة، ذلك المكان الموجود "داخل" الفرنسية، لم يتمكن من منع نفسه من أن يدخل في علاقته الخاصة

بذاتية اللغة وبحنانها الذاتي، إذا ما جاز التعبير، خارجاً مطلقاً، **منطقة** خارجة عن القانون، أي من منطقة محصورة، منغلقة لمرجعية من الصعوبة بمكان سماعها أو قراءتها، إلى لغة ما قبل الأولى **مغايرة تماماً**، إلى **تلك الدرجة صفر - ناقص - واحد** للكتابة التي تترك أثرها السحري بائناً في مستوى اللغة الأحادية المذكورة. وهذه ظاهرة فردية خاصة بالترجمة، ترجمة لغة لا توجد أصلاً، ولم يسبق لها أن وجدت، إلى لغة لها محطة وصول معطاة هذه الترجمة تظهر عبر ترجمة داخلية (من الفرنسية إلى الفرنسية) لتلعب دور اللامطابقة مع ذات كل لغة ممكنة لتلعب ولتتلذذ بذلك عندما نقول إن لغة ما لا توجد حالياً، فهذا يعني أنها لا توجد لا لغة، ولا لسان، ولا لهجة، وهذا هو السبب بالذات الذي جعلنا نهتم بتعداد هذه الأشياء، ومن أننا، وهذا بمعنى آخر سأشرحه فيما بعد، لا نملك أبداً لغة واحدة فقط، وأن هذه الأحادية اللغوية لا تشكل لحمة واحدة مع ذاتها المتماهية.

أما بالنسبة للغوي الكلاسي، فإن كل لغة تشكل نسقاً قائماً بذاته، وأن وحدته يعاد تشكيلها باستمرار. على أن هذه الوحدة وحدة لا تضاهيها وحدة أخرى إطلاقاً، ومع ذلك فهي تقبل بأشد أنواع التطعيم راديكالية، تقبل بالتشوهات، بالتحولات، بالاستملاك، بنوع معين من الانضباط، بالمسخ وباللا انتظام، في حين أن السلوك هو دائماً سلوك متعدد مبني على الكثير - أنا ما زلت أسميه هنا الكتابة حتى وإن بقي في المستوى الشفهي، الصوتي، أو الموسيقي فقط: وسواء كان ذلك أيضاً في مستوى الإيقاع أم في مستوى النظم - حيث نجده يسعى للتأثير على اللغة

الأحادية، تلك اللغة التي نملكها دون أن نراها أو نتلمسها. إنه يحلم بأن يترك شواهد تذكر بأية لغة أخرى مغايرة، وبالدرجة - صفر - ناقص - واحد للذاكرة كمحصلة أخيرة.

هذا السلوك إذن متعدد في ذاته، مقسم ومتحفز، وهو يمكنه دائماً أن يستسلم لذلك التأويل الذي يجعل منه حركة حب أو اعتداء تجاه الجسد المنثور أمام كل لغة معطاة، والواقع أنه يقوم بالفعلين معاً على حد سواء. فمن انكفاء، إلى استخدام، إلى ترابط مع هذه اللغة المعطاة، وفي حالتنا هذه تلاحم الفرنسية مع الفرنسية لتغطية ما ليس لديها وما ليس له هو نفسه أيضاً. لكن هذا **الخلاص**، ولأنه خلاص موجه باتجاه فناء الآخر، ورغبة في السكينة الأبدية، فهو أيضاً ضربة مخلب وزرع في الوقت ذاته، إنه يداعب بأظافره، وإن كانت أظافر مستعارة أحياناً، فإذا ما حلمت مثلاً بأنني أكتب بعض الهلوسات حول ذلك الذي أتاح لي، تهديد هويتي، أو أن أقول أنا Je انطلاقاً من ذاكرة مصابة بالنسيان أو بالحبسة، فأنا أعرف مسبقاً أنه لا يمكنني فعل ذلك إلا إذا قمت بشق درب مستحيل - وأن أخترع لغة أخرى حتى لا أتهاون في إعادة التكييف الخاص بالمعايير، بالجسد، وبقانون اللغة المعطاة - طبعاً بعيداً عن أية وساطة لهذه الخططات المعيارية والمتمثلة في برامج القواعد (النحو والصرف) في مفردات اللغة (أو المعجمية)، في السيمانطيقا أو الدلاليات، في البلاغة، في أنواع المقالات والأشكال الأدبية، في السلوكات المقولبة والصور النمطية الثقافية (أهم هذه الصور الطاغية تبقى آليات التناسخ القادمة، والانبعاث الذي لا يستكين للأنا الأعلى الأدبي).

إن ارتجال بعض أنواع السبق بغرض تدشينها هو المستحيل ذاته، كما أن إعادة التملك لم ينقطع حبل حدوثها أبداً، وبما أنه لا يمكن مجاوزتها، فإن الإحراج هنا يدفع إلى استخدام تعابير مستحيلة، غير مقروءة، غير مقبولة، وبمعنى آخر إحداث ترجمة لا يمكن ترجمتها. هذا، في الوقت الذي نجد فيه أن هذه الترجمة المتعذر ترجمتها، هذا اللسان الجديد سيستجلب معه هذا التوقيع الذي هو بمثابة الحديث الحاصل، والذي سينتج بدوره أحداثاً تخص اللغة المعطاة والتي هي بدورها ستعطي أحياناً، بعض الأحداث غير الملاحظة وغير المقروءة. أحداث هي في الغالب مجرد وعود، وليست وعوداً قائمة أو مجسدة، وعود هي أقرب ما تكون للوعود المسيحية. لكن إذا ما نظرنا للأمر من وجهة مغايرة، أليس الوعد ذاته هو ليس لا شيء أو ليس لا حدث.

إذن، كيف يمكننا أن نضع هذا المنطق في حسباننا؟ وكيف نقيّم هذا الحسبان أو هذا **اللوغوس**؟ في الواقع، وبالرغم من أنني غالباً ما استخدمت العبارة التالية "اللغة المعطاة" في حديثي عن اللغة الأحادية الموجودة، كالفرنسية على سبيل المثال، فإنه لا توجد لغة معطاة، فهناك بالأحرى شيء اسمه اللغة، هناك هبة تتعلق باللغة (*es gibt die sprache*)، فاللغة هي ليست، ليست معطاة، لأنها في حقيقة الأمر لا توجد أصلاً. فهي عندما تستدعي كالضيف الذي يبدأ ضيافته قبل أن يتلقى دعوة الضيافة، وبما أنها ألزمت، فإنها تبقى هكذا لكي تكون معطاة، بحيث سيصبح ذلك شرط وجودها، أي أن تبقى لكي تكون معطاة.

والآن لنعد مرة أخرى إلى تلك العبارة قليلة الحكمة "نحن لا

نملك أبداً إلا لغة واحدة"، ولنُعمل نظرنا فيها مرة أخرى لنستنطقها ونخرج منها ما لم تعرف إخراجه أو قوله، ولنتركها تتكلم علها تصل إلى قول أشياء لم تقلها بعد.

بالطبع يمكننا أن نتحدث لغات كثيرة، فهناك أناس يعرفون عدة لغات بشكل جيّد، بل إن هناك من يكتب عدة لغات في وقت واحد (عبر الترميم، التطعيم، الترجمة، النقل). لكن ألا يفعلون كل ذلك بغرض الوصول إلى اللسان المطلق، وبوعد الوصول إلى لغة خارقة لقصيدة شعرية لا يمكن سماعها.

إنني، وفي كل مرة أفتح فيها فمي، في كل مرة أتكلم فيها أو اكتب، أجد نفسي **مضطراً لتقديم الوعود**، وسواء أردت ذلك أم لا، فإنه ينبغي الفصل بين ذلك التسرع المشؤوم في إعطاء الوعود وبين قيم الإدارة، القصد، أو القدرة على القول المرتبطين بها منطقياً. أما الانجاز القائم في أفق هذا الوعد فلا يعد Speech Act من بين أفعال أخرى، بل إنه مشمول بفعل إنجازي آخر، لأن هذا الوعد هو المفتاح لإعلان وحدانية لغة مستقبلية ما. إنه يعني ظاهرياً تلك العبارة القائلة "ينبغي أن تكون هناك لغة" [أما بطريقة ضمنية فيعني بالضرورة: "لأنها لا توجد" أو "لأنها لم تظهر بعد"]، "لذا فأنا أعدكم بلغة"، "لأن اللغة هي دائماً موعودة"، وعد يسبق كل لغة، ويستدعي كل كلمة لأنه في النهاية ملك لكل لغة ولكل كلمة.

هذا النداء المستقبلي يشبه، وبشكل مسبق اللغة، فهو يستقبلها، وهو يجمعها، ليس لتصبح جزءاً من هويته، وحدته أو حتى ذاتيته، ولكن بما هي عنوان وحدانية أو فردانية تجمع يحمل اختلافه مع ذاته، أي أنه يحمل الاختلاف مع ذاته خير من أن

يحمله لذاته. إنه من غير الممكن مباشرة الحديث خارج هذا الوعد(*) الذي يعطي، ولكن الذي ينتظر أن يعطي بدوره في سبيل لغة معينة أو في سبيل وحدانية اللسان، إذ ليس من الممكن الخروج من هذه الوحدانية دون وحدة تذكر، كما أنه ليس من مصلحتنا مناقضة الآخر، أو حتى التميّز عنه، إنها لغة الآخر الأحادية. و de في *de L'autre* لا تعني الملكية بمقدار ما تعني الأصل أو المنشأ فنقول: اللغة هي الآخر، جاءت من الآخر، و*La* في *La Langue* جاءت هي أيضاً من الآخر.

إن الوعد الذي أنا بصدد الحديث عنه، والذي قلت عنه فيما سبق أنه يشكل تهديداً معيّناً (على النقيض مما نعرفه بعامة عن الوعد)، هو الوعد ذاته الذي أعلن هنا بأنه يعد بالمستحيل، ولكن أيضاً بإمكانية أن تأخذ الكلمة مكانتها، فهذا الوعد الفردي لا يحمل ولا يفصح عن أي مضمون مسيحي أو آخروي. إنه ما من خلاص يخلص أو ينقذ، أو مجرد أن يعد بالخلاص، حتى ولو أن هذا

(*) على النقيض مما يمكن أن نقول حول منظري الوعد بما هو *Speech Aet* وتعبير انجازي، فإنه ليس من الضروري لهذا الوعد، وحتى يبقى على ما كان عليه في نقطته البدئية أن يقام فيه أو أن يؤخذ كمكان جدي للإقامة فيه. ذلك أنه، ولكي يمكن لوعد معيّن أن ينطلق على هذه الشاكلة (وهذا يفترض وجود الحرية، والمسؤولية، وإمكانية اتخاذ القرار) فلا بد له، وبمعزل عن أي برنامج من ضاغط، من أن يتملكه ذلك الأرق الكامن في إمكان تحريفه عن قصده البدئي (يظهر التهديد أصلاً عندما نجد أن وعداً معيّناً لا يمكنه أن يعد إلا بما هو خير، وهو التزام غير جدي من وعد غير ثابت...إلخ). هذه الإمكانية. المفترضة غير قابلة للاختزال، وتدعو في الوقت ذاته إلى منطق افتراضي أو ما نسميه فلسفياً: منطق بالقوة). وهنا سأعود مرة أخرى فيما يخص هذه النقطة إلى *Avances* المرجع المذكور.

الوعد، وبمعزل عن كل نزعة خلاصية، يبدو شبيهاً بذلك الوعد الموجه للآخر، للآخر المعترف به كآخر لكل آخر (كل آخر هو آخر مغاير. هناك حيث قد لا تكفي المعرفة أو حتى العرفان للآخر المعترف به ككائن مائت، متناه، مهمل، ومسدودة كل أبواب الرجاء أمامه.

لكن أن لا يكون هناك **مضمون** محدد لهذا الوعد تجاه الآخر، وتجاه لغة الآخر، فإن هذا لا يقلل من عدم إمكانية الاعتراض على انفتاح الكلمة على شيء **هو أقرب ما يكون** إلى المسيحية، النزعة الخلاصية (أو الخلاصوية)، أو الأخروية.

فهذا الانفتاح البنيوي، والمسيحانية Messianicité التي من دونها لا يمكن للمسيحية ذاتها أن تكون ممكنة سواء أخذت في معناها الضيّق أو الواسع اللهم إلا إذا كان هذا الوعد الأصلي دون مضمون خاص يذكر، ما يؤدي إلى القول بأن المقصود هنا فعلاً ليس المسيحية. كل هذا شريطة أن لا تقوم كل مسيحية قائمة بالمطالبة لذاتها ولذاتها فقط بتلك القسوة الصارمة والمقفرة، وتلك المسيحانية المجردة من كل شيء. نحن لا نستبعد ذلك أبداً.

هنا أيضاً، ستكون لنا وقفة مع ملاحظة تتعلق بالبنية الشمولية: إن اللسان المسيحي في هذه الديانة الفردية أو تلك لا بد وأن يترك بصمته في النهاية، وهنا سنكون أمام قضية تتعلق بتلك **الصيرورة الأنموذجية** *Devenir- Exemplaire* التي تحملها كل ديانة في قلبها وذلك بسبب تلك الملاحظة اللافتة للنظر ذاتها. ومما لا شك فيه أن أحادية الآخر اللغوية هذه مازال يبدو على سحنتها بعض السمات المهدّدة المنحدرة من الهيمنة الكولونيالية (الاستعمارية)، لكن ما لا

يمكنها تجاوزه، مهما تكن ضرورة كل أنواع التحرر (أو الانعتاق) وشرعيتها، هو بكل بساطة قولنا "هناك لغة" وبمعنى آخر "هناك لغة لا توجد أصلاً"، بخاصة إذا علمنا أنه ليس هناك لغة واصفة Métalangage، وأن لغة ما مدعوة بصفة دائمة - إلى الحديث عن اللغة - لأن اللغة ذاتها لا توجد. إنها من الآن فصاعداً لن توجد، بل إنها لن توجد مطلقاً. أي زمان هذا، أي زمان هذا الذي يجعل هذه اللغة لا تصل إلى مستقرها أبداً!

على كل، يمكنك ترجمة ضرورة من هذا القبيل بطرق مختلفة، وإلى أكثر من لغة، كأن تترجمها مثلاً بلسان نوفاليس Novalis أو هيدغر وهما يحكيان، كل بطريقته الخاصة، مونولوج كلمة تحكي دائما عن سر ذاتها المتماهية. فهيدغر أعلن بشكل لا لبس فيه غياب كل لغة واصفة، وهو ما استوجب تنبيهاً فيما بعد على كل حال، لكن هذا لا يعني مطلقاً أن اللغة هي ذات منطق أحادي أو أحادية المنطق وحشوية، بل إن اللغة هي التي تملك دائماً مفتاح الدعوة إلى الانفتاح على الآخر المتعدد (المنطق المتعدد) hétérologique الذي يسمح لها بالحديث عن أشياء أخرى، وأن تتوجه إلى الآخر أيضاً. كما يمكننا أن نترجمها بلسان سيلان Célan، هذا الشاعر - المترجم الذي، وبالرغم من أنه يكتب بلغة الآخر، بلغة الهولوكوست Holocauste، فإنه لم ينس تسجيل اسم بابل Babel على جسد كل قصيدة من قصائده، مطالباً، وموقعاً، وخاتماً على أحاديته اللغوية الشعرية في أعماله. كما يمكننا توزيعها، أي هذه الضرورة على ابتكارات لألسن أخرى، ولأنواع أخرى من النظم، وذلك إلى ما لا نهاية.

قبل أن أختم لا بد من كلمة هنا، وملخصها أن ما قمت به لا يمكن أن يعد بأي حال مجملاً متعلقاً بالسيرة الذاتية، أو بالسلوك، ولا حتى بما هو محاولة محتشمة لنوع من *Bildungesroman* الفكري، بل إن العرض الخاص به هنا، هو في الحقيقة سيكون عرضاً للعقبات التي واجهتني في سبيل إنجاز هذا العرض - الذاتي. بمعنى أن أعرض ما عرضني لهذه العقبة، وقذفني ضدها، ولحادث السير الذي ما زلت أعاني تبعاته إلى الآن.

إن ما شكل محور انهمامي، ومنذ فترة طويلة - سواء أحمل ذلك اسم الكتابة، أو الأثر، أو تفكيك (تحطيم) النزعة الذكورية (القضيبيانية) Phallocentrisme و"الميتافيزيقا الغربية" (التي لم أنظر إليها في يوم من الأيام، بالرغم من المقولات المقولبة حول ذلك، بما هي شيء واحد متجانس ومراقب من قبل "أل" التعريف الفردية، بل إن ما قلته إجمالاً، وبشكل جلي، هو عكس هذا تماماً!)، كل هذا لم يمنع مباشرة هذه الإحالة الغريبة إلى هذا "الهناك" الذي بقي مكانه ولغته مجهولين أو ممنوعين عني أنا ذاتي، كما لو أنني أحاول **أن أترجم** فقط داخل سياج اللغة والثقافة الفرانكو - غربية التي أحوزها، والتي قُذفت داخلها منذ مولدي، وهي إمكانية ممتنعة عليّ أنا ذاتي كما لو أنني أحاول أن أترجم إلى لغتي الأحادية كلمة لا أعرفها، كما لو أنني أيضاً أقوم بنسج شراع بالمقلوب (وهو ما يقوم به بعض النساجين بالفعل)، وكما لو أن بعض نقاط العبور الضرورية لهذا النسيج بالمقلوب كانت أماكن للتعالي،أي أماكن لهذا "الهناك" المطلق كما نظرته الفلسفة، الغربية اليونانية - اللاتينية - المسيحية، أو كما انعكس في ذاتها هي

(*epekeina tes ousias* وما بعدها Khôra، الثيولوجيا السلبية، المعلم أكهارت Eckhart وما بعده، فرويد وما بعده، وكذا هيدغر، أرتو[*]Artaud، لڤيناس، بلانشو[**] Blancho وآخرون). على أنني لن أقوم بتقديم أي تقييم هنا انطلاقاً من حالتي الفردية التي كنت بصدد وصفها هنا بشكل موجز، فما وقع لا يفسر فحسب انطلاقاً من المسار الشخصي لذلك الشاب اليهودي "الفرانكو - مغاربي "والمنتمي لجيل معيّن، ذلك أن الطرق والاستراتيجيات التي اتبعتها في عملي هذا، أوفي هذا الذي انشغفت به تخضع أيضاً لبنيات قائمة بذاتها، أي إرغامات سابقة للثقافة اليونانية - اللاتينية -

(*) أنطونين أرتو Artaud (Antonin) 1896-1948): واسمه الحقيقي انطوان ماري جوزيف أرتو، كاتب وشاعر فرنسي متقلب المزاج حتى ليقال أنه كان في غيبوبة الجنون أغلب فترات حياته، وقد كانت له اهتمامات متنوعة في الأدب، الشعر، السينما، المسرح، من اهم مؤلفاته: **وقائع تافهة** *Faits divers)* (1924)، اليهودي التائه (1926) *Le Juif érrant*، آلام جان دارك *La passion de Jean Darc* (1927).

(المترجم)

(**) موريس بلانشو: Maurice (Blanchot) (1907 - 2003): روائي، ناقد أدبي، وفيلسوف فرنسي شهير، وهب كل حياته للتأليف، ونظر للصمت عبر الكتابة. كان قارئا نهماً لستيفان مالارميه S.Mallarmé. وصديقاً وفياً للڤيناس وجورج باطاي G.Bataille مارس تاثيراً كبيراً في الفلسفة الفرنسية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية بصدد مسألتين أساسيتين: العلاقة الجدلية بين القراءة والكتابة، والبحث الأنطولوجي لمسألة الموت.
كان مؤلفه **الصمت** *Le Silence* علامة بارزة في تلك المرحلة.من مؤلفاته الكثيرة الأخرى: **قدر الموت** (1946) *L'arrêt de mort*، **المجال الأدبي** (1955) *L'espace littéraire*، **سرديات نقدية** (2003) *Récits critiques*.

(المترجم)

المسيحية - العفصية gallique التي ما تزال أحاديتي اللغوية منحبسة داخلها وربما إلى الأبد. إذن، فمن الضروري التعامل مع هذه "الثقافة" لغرض ترجمة، جذب، إغواء إن تحتم الأمر، هذا "الهناك" الذي وُرِدت إليه أنا نفسي بشكل مسبق، أي ذلك "الهناك" الذي أبقيت معه، حتى أبقي أنا ذاتي وأحافظ على بقائي، على نوع من العلاقة دون علاقة حيث كل واحد ينظر إلى الآخر في انتظار لا طائل منه للغة لا تحسن فعل أي شيء سوى أن تتركنا ننتظر، ننتظرها هي. هذا كل ما تقوى على فعله أن تجعلنا ننتظرها، وهذا كل ما أعلمه عنها اليوم ولكن إلى الأبد أيضاً.

إن كل اللغات الخاصة بما يسمى "الميتافيزيقا الغربية"، لأن هناك أكثر من ميتافيزيقا، وصولاً إلى مصطلحات التفكيك المزدهرة، كلها تعود في النهاية، وبمقتضى الوشم الموجود على جسدها، إلى هذا المعطى الذي ينبغي مقاربته.

فالقول بوجود جنيالوجيا يهودية - فرنسية - مغاربية هو أبعد ما يكون عن تفسير كل شيء. لكن أيمكنني أن أشرح أي شيء أيضاً من دونها؟ لا، لا شيء، لا شيء مما يشغلني على الأقل، مما يلزمني، مما يجعلني في حركة دؤوبة أو في "تواصل" مع الآخرين، لا شيء مما يناديني أحياناً عبر الزمن الصامت لأنواع التواصل غير المنقطعة، لا شيء أيضاً مما يعزلني فيما يشبه التقاعد اللا إرادي في صحراء مقفرة ينتابني بين الفينة والأخرى وهم أن أزرعها أنا نفسي بمفردي، وأن أقوم بمسحها مختلقا لذلك أسباباً وجيهة جميلة - ما بقي من الذوق تحديداً، ولكن بعض "الإيتيقا" و"السياسة" أيضاً - في حين كان هناك من قام بحجز مكان لي، وكأنني رهينة من

الرهائن، حجز هو في الواقع إخطار لي حتى قبل أن أصل.

إن معجزة الترجمة لا تحدث كل يوم، فأحياناً نشعر وكأننا بداخل صحراء قاحلة دون أن نقطع هذه الصحراء حقيقة. وفي سجن الثقافة الباريسية دون شك، ولكن أيضاً، وقبل هذا وذاك ربما في **"فورة الإعلام" الغربية، إن لم نقل على طرقات العولمة المؤدية إلى "المجال العمومي" (أو العام)** espace public، ما يمكننا تسميته باللا مقروئية.

فما هي يا ترى حظوظ قراءة مقال حول اللا مقروء؟ لأنني لست أدري ما إذا كان هذا الذي سمعتني أقوله للتو سيكون شيئاً يمكن تعقله، لكن دون أن أعرف أين، ولا متى، ولا لأجل من أو لأي مستوى. لربما أكون قد حاولت القيام "ببرهنة" معينة، لست متأكداً من ذلك، فأنا لا أعرف ما هي اللغة التي ستفسر بها هذه الكلمة.

إن برهنة معيّنة منقوصة من نبرتها لن تبقى محاجة منطقية لها خاتمة محددة، بل إنها ستأخذ بما هي حدث سياسي، مظاهرة في الشارع (لقد ذكرت قبل قليل كيف أنزل إلى الشارع كل صباح، لكنني لا أنزل أبداً عبر الطريق ولكن عبر السبيل). مسيرة، فعل، نداء، ضرورة. إنها مسرحية مرة أخرى أليس كذلك، فما قمت به للتو لا يتعدى كونه مسرحية. ففي الفرنسية أيضاً، وعبر نبرة معيّنة، فإن البرهنة قد تكون أولاً، وقبل كل شيء عبارة عن حركة، حركة من حركات الجسم، أو العقل المحرك "لمظاهرة" معيّنة. نعم إنها مسرحية، لكنها مسرحية دون مسرح، لأنها مسرحية مسرحها الشارع. ولنفترض أنها أثارت اهتمام أحدهم، وبخاصة إذا كان ذلك

الذي أشك أن يكون هو إنها ستكون كذلك، أي مسرحية بمقدار ما تخدعني، بمقدار ما تسمعها عبر مسمع لا أملك عنه أية فكرة، ما لم أرد قوله، أو تعليمه، أو إبلاغه عبر فرنسية رصينة.

لذا، هل تسمح لي بمقال حول الأسرار التي ما تزال مقروءة من اللا مقروئية؟ وهل ستجد أصلاً من يود الاستماع إليها بعد؟

هذا الأمر في الواقع يذكرني، على ما في ذلك من مسافة زمنية بعيدة، واختلاف الكلمات المستخدمة، بتلك اللعبة الصبيانية المرعبة التي لا تنسى هناك، والتي لا تنتهي، والتي تركتها هناك، والتي سأحكي لك حكايتها يوماً. فالصوت الحي قد تم حجبه، صوت فتي لكنه غير ميّت. ثم إنه لن يكون هناك شر إذا ما تملكني شعور بضرورة العودة للمرة الأولى إلى الواقع، كما عودة حبيس المغارة بعد موته، حيث سأعيد حقيقة ما عشته، الحقيقة ذاتها بعيداً عن الذاكرة تماماً كما لو كان الجانب المخفي للظلال، للصور، لصور الصور، للاستبهامات التي سكنت كل لحظة من حياتي.

إنني لا أتحدث هنا عن قصة فيلم معين يمكننا أن نعاود مشاهدته (فالحياة كانت قصيرة فعلاً) ولكن أتحدث عن الشيء ذاته، بعيداً عن الذاكرة والزمن الضائع، فأنا لا أتحدث أيضاً عن انكشاف نهائي، ولكن أتحدث عما لم يكشف بعد، عن كل زمن غريب، عن الوجه المستور أو المغطى، بل عن وجه الحجاب ذاته.

هذه الرغبة وهذا الوعد استجلبا كل أطيافي، رغبة لا أفق لها، وهنا يكمن حظها وشرط وجودها، ووعد ما عاد ينتظر ما كان ينتظره: لأن الأهم أصبح مجسداً في ذلك الذي سيأتي مستقبلاً، وهو ما سيعفيني من واجب التمييز بين الوعد والرعب.

إضـافـة لا بـد منهـا

إعـــــلان

«- لنتصور أن أحدهم يقوم بتعلم اللغة الفرنسية، ما يسمى اللغة الفرنسية، التي يعمل الفرنسي على تعلمها، والذي، وبموجب ذلك، يمكن أن نسمه بأنه مواطن فرنسي الثقافة أو أن ثقافة هذا المواطن ثقافة فرنسية.

بيد أن هذا المواطن، فرنسي الثقافة، قد يأتيك يوماً ويحدّثك بفرنسية فصيحة "أنا لا املك إلا لغة واحدة، ومع ذلك فهي ليست لغتي". بل أكثر من ذلك قد يقول لك:

"أنـا أحـادي الـلـغـة monobilingue، وأحـاديـتـي هـذه كـانـت وستبقى بيتي، هكذا أحسبها، وهكذا أسكنها وتسكنني، وهكذا ستبقى - إن الأحادية التي أتنفسها هنا هي بمثابة العنصر الحاسم في حياتي، عنصر لا هو بالطبيعي، ولا هو يمثل شفافية الأثير، بل إنه وسط بين هذا وذاك [...] هذه الأنانة Solipsisme التي تعد بمثابة معين لا ينضب هي أنا ذاتي قبل أن أكون أنا وقبل أن استقر.

على أن هذه اللغة، اللغة الوحيدة التي نذرت نفسي للتحدث بها، ما دمت أمتلك إمكانية التحدث من المهد إلى اللحد، هي كما ترى ليست لغتي، أو في واقع الأمر لن تكون أبداً لغتي.

من هـنـا يـبـدو أنـك بـدأت تـتـلـمـس بـجـلاء مـكـمـن عـذابـاتـي

المتتالية، ذلك أن هذه اللغة الوحيدة التي تخترقها من أقصاها إلى أقصاها هي مكمن آلامي، رغباتي، وصلواتي، بل هي الدافع لكل آمالي...»

هكذا يبدأ هذا الكتاب المعبّر عن حميمية بين الذات وذاتها مع أنها تبدو أحياناً "خارجة عن ذاتها"، إنه محادثة وهمس لإسرار نشط، ولكنه أيضاً مناجاة مرتبة، وهم مقابلة دراماتيكية، ومناقشة سياسية بلغة معيّنة موضوعها اللغة سالفة الذكر.

هذا الأمر، في الحقيقة، يحدث مع الذات كما لو أنه آخر آخر، بخاصة عندما نجد أن طفلاً من أطفال الأمس يحاول الحديث بصوته الخاص، ويحاول تشخيص هذا المرض الذي أصابه في المدرسة في الجزائر الفرنسية، إنه الدمغة والنبرة، وجنون الإيقاع أو النظم - ولكنه قبل هذا وذاك هو نوع من **الغلو** المعمم.

هذا التشخيص تم إقراره عن طيب خاطر، لكن ليس دون تحفظات أولئك الذين يودون أن يروا في فرضية جينيالوجية معيّنة، سيرة ذاتية صغيرة لمذاق مفرط لما يمكن أن نسميه "التفكيك" الذي لا تعريف له سوى تلك العبارة الواضحة التي ظهرت يوماً، والتي أعتقد أنه من المفيد التذكير بها هنا: "**إنه أكثر من لغة** *plus d'une langue*[*] "

في هذه الأثناء، وخلال مناقشة حادة، حبكت مباحث أخرى:

(*) "إذا ما كان لي أن أتجشم بعض المخاطر، وليحفظني الإله منها، فإن هناك تعريفاً واحداً للتفكيك: مقتضب، يتميّز بالإيجاز، اقتصادي وكأنه أمر من الأوامر، دون تحذلق هو: "إنه أكثر من لغة *plus d'une langue*". **مذكرات لأجل بول دومان** *Mémoire pour Paul De Man, Galilée, 1988, P. 38*.

الاستبهام القائم في أفق "اللغة الأم (الأصلية)"، الهيمنة الأحادية بما هي "سياسة محورها اللغة"، كولونيالية المدرسة والثقافة، شعرية الترجمة، الممنوع المتمحور حول ماهية الكلام، التاريخ القديم، والحديث، والوحيد ليهود - الجزائر - الفرنسيين، المقدمات والآفاق المستقبلية للحرب التي تحمل اسماً واحداً، الفوارق الموجودة في لغة الضيف بين السفارديم والاشكيناز، واخيراً "الأدب الفرنسي" عندما يتحول إلى مثال يقتدى به مراهق معيّن، فإنه سيصبح أيضاً، وبدون شك، المثال المستحيل، ولغة الآخر التي لا يمكن تصورها.

تـــذكـــير

على وقع طريقة خيالية وخطابية في الوقت ذاته، ولكن أيضاً، وعبر عرض يتمّز بالأيضاًح، المباشر، بل وحتى الديالكتيكية، نجد أن دريدا في مؤلفه هذا قد حذا حذو مؤلفات أخرى. وهكذا فمن **البطاقة البريدية** (*La Carte postale (Flam. 1980*، إلى *Circonfession*) (*Seuil, 1991*) نجد الأرضية الممهدة التي مهدت لما سيأتي، دون أن يؤدي اعتراض ما إلى نوع من الحزن والقنوت. ربما لأنه أمكننا إدراك بعض الابتهاج الخفي أو بعض الرعاية التي جلبت لنا الحظ. حظ أوصلنا إلى اللغة، اللغة التي تتكلم عبر قسمات الوجه والتي تنبجس حروفها من بين الشفاه. إن لم نقل من الأسنان، اللغة التي تحسن ممارسة الصمت قبل أن تمارس الكلمة.

وعلى كل لنتأمل هذا المثال الموجه إلى الآخر كما لو أنه كان ملحقاً باللغة (**لا لغة** *plus de langue*، إنه أكثر من لغة (*plus d'une langue*.

«... إن الإحالة، حتى لا نقول الاستحالة، تأتي من خلف الكلمات، إنها تعمل في صمت، صمت نافذ ومن الصعب تعداده. لقد أردت أن تحل محل ذاتي وأن تنفذ إلى لغتي أيضاً فأنا ما زلت أتذكر تلك اللحظات التي كنت تناديني فيها دون إخطاري، وأتذكر مجيئك ليلاً لكي تقلقني، وتنطق اسمي من على حافة لسانك. لقد تم كل ذلك تحت سقف اللغة بلطف، بتأني، إنه زلزال غريب كنت متأكداً أنه، ومنذ لحظة وقوعه، لن يعود، وأن ما سيعود هو تلك

الارتجاجات التي ستشمل اللغتين معاً: اللغة الأجنبية واللغة الأخرى. وعلى السطح لا يوجد أي شيء سوى رغبة معذبة، مطبقة، لا مكان لها، لا تجهد نفسها في متابعة حركة اللغة. إذن، وكما تسمع عنها وبها، فإننا الوحيدين الذين نتلقى صمتها، لأنها ببساطة لا تقول شيئاً. ولأننا عرفنا كيف نحبها، بعد مرورنا، دون أن يكون قد تغيّر أي شيء في مظهرها، فإنها قبلت بأن لا تبحث مسألة من تكون هي، فهي لم تعد تتعرف حتى على قسماتها الخاصة، ولم تعد لها القدرة على فرض القانون حتى في بيتها، بل إنها فقدت الكلمات أصلاً. مع ذلك، ولكي ترضى بهذا الجنون، فإنه ينبغي أن نتركها وحيدة تناجي ذاتها بذاتها وذلك لحظة دخولك [...] فلن تقع هناك أشياء ذات أهمية، واضعين في حسباننا، أننا عندما نندفع باتجاه اللغة تماماً كالصبي المحموم (وسترى ماذا أفعل به) الذي يعتقد أنه يمكنه تملكها، أن يمارس أشياء معيّنة عليها، أن يجعلها تصرخ أو أن يقطعها إرباً، أن يلجها، وأن يغرس مخالبه في أقرب فرصة ممكنة قبل القذف المبكر، وبخاصة قبل أن تبلغ هي شهوتها الخاصة بها. (إنها هي التي أفضلها دائما (لكن سنكشف فيما بعد، هذا إذا لم يكن قد حدث ذلك فعلاً، أن التسهيلات التي كان يعتقد أنها ستقدمها لنا، وبعد أنواع التعنيف البشري، ونشريات الانتصار الثوري، فإن العجوز بقيت عصية على الايلاج، عذراء، عصية على الألم، مرحة قليلاً، قوية جداً، ومع أنها امتهنت الشارع إلا أنها تحبني أنا) لقد سمعتها يوماً تمزح برفق، دون كلمات، من إكراهاتهم الصبيانية [...]».

*هذه بداية أحد مشاهد البطاقة البريدية (15 مارس 1979)، الذي يدور حول لغة مجنونة معيّنة، وقبل ذلك بأشهر معدودة، كان الكاتب ذاته، قد استشاط غضباً ضد سخرية القدر لدرجة المسبّة:

"هل رأيت أيها الفهيم، أن هذا الأمر غير ممكن في الفرنسية. إذ هل يمكننا أن نموت في سبيل حبنا لهذه اللغة؟ إنه الحظ السيء الذي يجعلني دائماً مستهدفاً أنا وحدي لا غير، فما كان ينقصني إلا أن أختار هذه اللغة، وأن تكون لغة واحدة فقط، وأن أبقى متمسكاً بها كالفريق المتمسك بقشة، أنا (الذي لست فرنسياً (بلا أنا كذلك، بلا). إذن كيف تريد أن تجد خبرتك مع هذه اللغة المنحلّة؟ كيف تريد أن تتزوجها؟ وأن تجعلها تغني؟ (26 سبتمبر 1978).

وبعد مضي عشر سنوات ما زالت المحاكمة ذاتها مستمرة. وكذا الاتهام، الحكم، الاستئناف والاستدعاء:

«... إنه رفض وإنكار تم تأكيدهما بالكتابة ذاتها، والإرادة الأخيرة لكلمة الكلمة، هناك حيث تستمتع الكتابة من هذا الحرمان من الذات، مبتهجة بما ستقدم كحاضر شاهده الأساس الموت أو الفناء الذي يعني الميراث أولاً وقبل كل شيء، ذلك أن الموت فيما أرى، لا يعطى إلا بلغة واحدة. حيث أجد أن استعمار الجزائر في سنة 1830، أي قرناً كاملاً قبل أن أولد، قد صنع حاضري الذي أحياه، I don't take my life، ومع ذلك سأدرك موتي، سأنتحر».

«[...] هكذا وضعت في الخارج، فتحولت أنا ذاتي إلى خارج، لكن الجميل هنا هو أن الآخرين بدأوا في الاقتراب مني ولمسي، ما جعلني أقترب منهم من خلال هروبي من سجن اللغات، كل اللغات، ومن القداسة التي حاولوا سجني فيها دون مهرب، ومن العراقة التي لا أرى بأنها يمكن أن تكون يوماً لي، مع ذلك فإن هذا الجهل، بقي الحظ الأخير لإيماني ولأملي، لذوقي المتعلق " بالكلمة "، المتعلق بالحروف..».

(Circonfession, P.263 et 267).

أحادية الآخر اللغوية

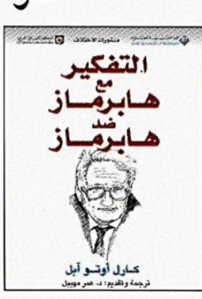
جاك دريدا

ها أنذا أعود مرّة أخرى إلى جاك دريدا لأقدم للقارئ العربي الترجمة الأولى لأحد أهم كتبه وهو «أحادية الآخر اللغوية»، كتاب ينتقل فيه دريدا من أقاليم اللغة بحمولاتها الحاضرة ودلالاتها الغائبة إلى البحث في أقانيم الهوية بمسمياتها المتفردة تارة، وألاعيبها المتكثرة تارة أخرى. إن عودتي لدريدا هنا لا تحمل من العودة سوى معنى العودة، فهي ليست عودة تفكيكية، ولا بنيوية، وإنما هي عودة تهدف إلى وضع دريدا على محك «البحث الهرمينوطيقي»، ومحاولة إدخاله مملكة المعنى، المرجع، الدلالة وبالمرة إخراجه من أقنوم اللغة الباحثة عن انسجامها داخل غرائبية لفظية متعبة، مرهقة تكاد أن تجعل من الإنسان رمزاً ضمن قائمة مرموزاتها الكثيرة.

من مقدمة المترجم

اقرأ أيضاً:











الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

منشورات الاختلاف
14 شارع جلول مشدل
الجزائر العاصمة
البريد الإلكتروني:
revueikhtilef@hotmail.com

ISBN 978-9953-87-281-0

